© ٢٠١٨ مركز بحوث القرآن
جامعة ملايا، ماليزيا

قرآنيكا، مجلة عالمية لبحوث القرآن
المجلد ١٠، ع(١)، يونيو، حزيران ٢٠١٨م، ص٨٩-١٢٨

البعد التداولي للنسق الحواري في القرآن الكريم: مقاربة معرفية حجاجية(*)

د. عبد الرحمن محمد طعمة[١]

(Pragmatic Dimension of Conversation in the Holy Qur'an: A Cognitive Argument Approach)

Abd al-Rahman Mohammad Teama[2]

ABSTRACT

This study is dealing with pragmatic discourse within Qur'anic Conversation Through different cognitive approaches, specifically argument system of discourse in relation to mental apparatus between speaker and addressee. We'll start with an elucidation to the cognitive and linguistic nature of argumentation together with the specific overlap of pragmatics, then we'll introduce the Qur'anic approach to these issues. The study will end up with an analysis to Moses & Pharaoh conversation in Qur'anic Chapter 26 (Poets الشعراء) with a clearance to the most important pragmatic argumentation within this prominent conversation.

Keywords: *Cognition, Argumentation, persuasion, Pragmatics, Conversation, Qur'anic Discourse.*

(*) This article was submitted on: 7/08/2017 and accepted for publication on: 9/02/2018.

[١] قسم اللغة العربية، كلية الآداب، جامعة القاهرة – جمهورية مصر العربية.

[2] Arabic Department, Faculty of Arts, Cairo University, email: aaubad@cu.edu.eg

ملخص

تعالج هذه الدراسة الأبعاد التداولية للمحاورة القرآنية، من حيثُ خصوصياتُها المعرفية المتنوعة، بين أنظمة الحجاج والجدل، وما ينشأ عن التفاعل الذهني العرفاني بين رسالة المتكلم في نسق الحوار اللغوي الجاري على الألسنة، ونظام التلقي الذهني لدى المخاطَب. وسنبدأ بتوضيح الطبيعة المعرفية والطبيعة اللسانية للحجاج، بالتداخل مع التداولية، ثم نبحث معالجة القرآن الكريم لهذا الأمر، خصوصا ما يرتبط بالحجاج البلاغي والحجاج الإقناعي، ثم تنتهي الدراسة بنموذج تطبيقي لتحليل محاورة موسى وفرعون الكبرى المتمثلة في آيات صدر سورة الشعراء، مع رصد أهم جوانب العمليات التداولية الحجاجية من خلالها.

كلمات دالَّة: المعرفية، الجدال، الحجاج، الإقناع، الحوار، التداولية، النسق القرآني.

– تمهيد:

استوعبت اللغة الشريفة قضايا القرآن الكريم وفق أنساق تركيبية شديدة الإحكام والإعجاز، لأن وعاء حفظ التوجيه السماوي يجب أن يكون منضبطا بقواعد توليفية مباينة لقواعد اللغة العادية في كلام البشر، رغم أن لغة الخطاب الإلهي تتشكل من الحروف نفسها، والأصوات ذاتها، غير أن طريقة تثوير التصورات في الذهن البشري وتشكيل بنية معرفية استيعابية للخطاب الأقدس من خلال الوعاء اللغوي، اقتضى كل هذا نمطا خاصا ونسقا تركيبيا مختلفا، بل ومتفردا في بنيته التكوينية. وتحاول هذه الورقة بيان شيء من البنية المعرفية للنسق الحواري في الكتاب العزيز، تأسيسا على أطروحات الدرس اللساني المعاصر، وبعض أسس الدرس اللساني التراثي، في مقاربة تداولية بلاغية، تتغيا ***فهم طبيعة المحمول الدلالي للتركيب القرآني على مستوى النسق الحواري***، خاصة فيما يتعلق بأسلوب الحجاج وآليات الإقناع التداولية.

٢– الطبيعة المعرفية لأسلوب المحاورة في الخطاب التداولي الحجاجي:

تتأسس طبيعة المحاورة بوصفها نمطا من أنماط التواصل الإنساني اللساني على كثير من ركائز توصيل الحُجة ومرونة الفهم بين جماعة المتخاطبين. وسنكتفي في هذه الورقة بإيراد ما نراه ضروريا، أو ما نعده مدخلا لفهم الأسس المعرفية لطبيعة المحاورة عموما، والمحاورة في الخطاب القرآني على وجه الخصوص.

٢–١ هناك الكثير من **الكفايات المعرفية التواصلية** التي يجب أن تتوفر في المحاورة حتى تحقق هدفها الاتصالي العام من الحجية والإقناع؛ فالتداولية المعاصرة تشترط تخطي معرفة القواعد الصوتية والصرفية والدلالية ... إلخ، إلى معرفةٍ أعمقَ **بالقواعد التداولية** التي تكفل الفهم في مختلف مقامات التواصل، التي تتباين بتبائُن المتكلمين(١).

وقد ميزت كاثرين أوريكيوني بين **أربعة** من هذه الكفايات: اللسانية، والموسوعية، والمنطقية، والبلاغية التداولية(٢)؛ وتفاصيلها كثيرة، لكن ما يرتبط بما نحاول تقديمه هنا هو أن التفاعل بين الكفايتين: **الموسوعية والمنطقية** هو الأساس في خلق الأرضية المعرفية المشتركة بين المتحاورين لأجل إنجاز فعل التخاطب؛ فالموسوعية تشمل المخزون الذهني المعرفي من معتقدات وأنساق قيم مستقاة من التجارب والخبرات ... إلخ، والانتظام المعلوماتي الهائل في دماغ كل فرد، والمنطقية تحقق إمكانية الاشتقاق المعنوي لمعان جديدة تعتمد على الكم المخزون السابق، وذلك من خلال *عمليات استدلالية محكومة بمبادئ المنطق الاستنباطي والاحتمال* ... إلخ؛ فالتفاعل دائم مستمر بين هذين النمطين من أنماط الكفايات، وتغلف هاتين الكفايتين في تفاعلهما الكفايةُ **البلاغية التداولية** التي تتمثل في مجموعة المبادئ (مسلمات أو قواعد أو شروط، كما اختُلف في تسميتها بين جرايس، ولايكوف، وريفزين) حيث إن الهدف الأساسي منها هو تمكين مستعمل اللغة الطبيعية من استخدام العبارة اللغوية المناسبة بالنظر إلى وضع متلقيه وإلى الموقف التواصلي برمته(٣)، كما سنرى في نموذج المحاورة الحجاجية بين موسى عليه السلام وفرعون. أما **الكفاية اللسانية** فهي ببساطة المِلَكَة التي يتمكن من خلالها مستعمل اللغة الطبيعية من الفهم والتأويل للكثير من عبارات الخطاب أثناء مواقف الاتصال المتباينة، وبالتالي فهي تمثل الحد المعرفي

(١) أحمد المتوكل: الوظيفية بين الكلية والنمطية، دار الأمان للنشر والتوزيع، الرباط، ط ١، ٢٠٠٣، ص ٢١٩.

(٢) راجع للتفاصيل: كاثرين أوريكيوني: فعل القول من الذاتية في اللغة، ترجمة محمد نظيف، نشر إفريقيا الشرق، ط ١، ٢٠٠٧.

(٣) أحمد المتوكل: قضايا اللغة العربية في اللسانيات الوظيفية .. بنية الخطاب من الجملة إلى النص، دار الأمان، الرباط، ط ١، ٢٠٠١، ص ٣٧. وراجع المحاورة .. مقاربة تداولية، مرجع سابق، ص ١٣١.

الأدنى في دماغ الإنسان، ولا يمكن من خلالها فقط إنتاج العبارات وتأويل المقاصد، مما اقتضى وجود الكفايات الأخرى المذكورة.

ويمكن تلخيص هذه **البنى المعرفية التفاعلية** في الشكل التالي:

خطاطة (١) التفاعل المعرفي بين الكفايات التواصلية

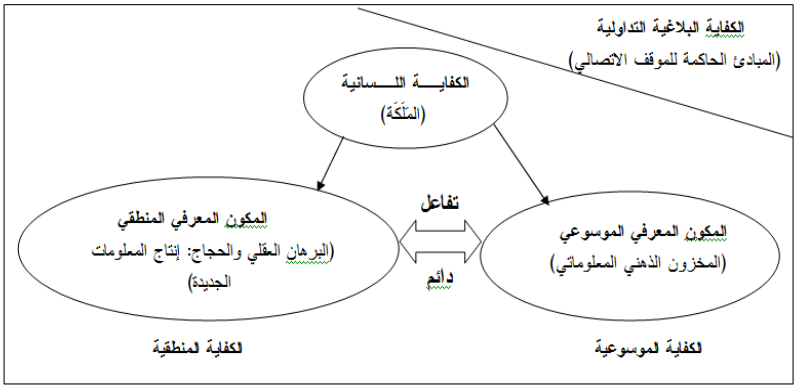

تبين الخطاطة فكرة التفاعل المنطقي الوظيفي المختص بالتركيب والدلالة، بالتأسيس على هذه البنى المعرفية المهمة، وفي مركزها الكفايتان الموســـوعية والمنطقية؛ حيث يقوم التركيب بتحديد أنماط العبارات المنطقية، بينما تهتم الدلالة بكيفية تأويل هذه العبارات، وذلك اعتمادا على قواعد التأويل والقواعد الاستدلالية(١).

٢-٢ وتأتي الأهمية المعرفية للبنية المنطقية في المحاورة من أنها هي **حافز التفاعل الحجاجي**، لأن دينامية الإقناع تتولد شيئا فشيئا من خلالها؛ حيث إن الجهاز المفاهيمي في دماغ المتحاورين مختلف بما يحويه من معتقدات ومعلومات، وقد توجد أرضية مشتركة من التفاهم أو لا توجد، فالمسالة نسبية؛ ولذلك فلا بد في هذا المقام من التفرقة بين نوعين من **الاستدلال** الذي يمثل الآلية الدينامية الكبرى في عملية **الإقناع**:

- **الاســـتدلال الطبيعي (الحجاج)**: وحَدُّه أنه: " فعالية تداولية جدلية؛ فهو **تداولي**، لأن طابعه الفكري مقامي واجتماعي، وهو أيضا **جدلي**، لأن هدفه **إقناعي** قائم بلوغُه على التزام صور استدلالية

(١) عز الدين البوشـــيخي: قدرة المتكلم التواصـــلية وإشـــكال بناء الأنحاء، أطروحة لنيل دكتوراه الدولة، كلية الآداب، مكناس، المملكة المغربية، ١٩٩٧، ص ٩١.

أوسع وأغنى من البنيات البرهانية الضيقة؛ فالانتقالات فيه لا تُبنى على صور القضايا وحدها، كما هو شأن البرهان، بل على هذه الصور مجتمعة إلى مضامينها أيما اجتماع، وأن يُطوى في هذه الانتقالات الكثير من المقدمات والكثير من النتائج، وأن يُفهِمَ المتكلمُ المخاطَبَ معانيَ غير تلك التي نطق بها، تعويلا على قدرة المخاطَب على استحضارها إثباتا أو إنكارا، كلما انتسب إلى مجال تداولي مشترك مع المتكلم ..."[١].

– **الاستدلال الصوري (البرهان)**: وحَدُّه أنه قائم على ترتيب صور العبارات بعضها على بعض، بصرف النظر عن مضامينها واستعمالاتها، فهو **رياضي آلي**، ويستخدمه الذهن دون وعي، ولذلك تفصيلات ليس هذا مقامها، وبالتالي فالبرهان هو مظهر فقير من مظاهر الاستدلال في الخطاب الطبيعي؛ فهذا الخطاب يتميز بأنه يقوم على ***ملازمة مضمون القول لصورته، وملازمة القول لمقامه***، ولهاتين الملازمتين دور مهم في تقويم القول في اللغة الطبيعية؛ فالأولى تفيد في تصحيح البنية؛ إذ قد تغطي فائدة المضمون فساد الصورة، والثانية تفيد في تثبيت تأثير القول؛ إذ قد تغطي مناسبة المقام ركاكة المقال[٢]. لكن وجوده الضمني مهم؛ أعني أن الحركية الخطابية في الحوار تتأتى بالأساس من الحجاج وتقنياته التواصلية، لكن وجود البرهان داخل البنية المعرفية الذهنية، حتى دون إدراك الفرد لهذا، هو أمر ضروري لسلامة هذه البنية وتكاملها. وسيتبين لنا في نموذج من حوار موسى وفرعون شيء من هذا.

وقد ميز "أزفالد ديكرو" بين الاستدلال الحجاجي والاستدلال البرهاني من حيث النسق؛ وجعل ***الحجاجي للخطاب، والبرهاني للمنطق***؛ فالقياس المنطقي عنده لا يؤلف خطابا، لأن كل قول في الاستدلال المنطقي يمثل قضية مستقلة عن بقية القضايا، بحيث يكون **تسلسل الأقوال** في حالة المنطق مؤسَّسًا على القضايا المتضمنة فيها وليس على الأقوال ذاتها، ولذلك تجد في حالة الاستدلال البرهاني أن النتيجة ملزِمَة بناءً على الصورة المقدمة: كل نام حيوان / النبات نام / النبات

(١) طه عبد الرحمن: في أصول الحوار وتجديد علم الكلام، المركز الثقافي العربي، ط ٢، ٢٠٠٠، ص ٦٥.

(٢) طه عبد الرحمن: اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، المركز الثقافي العربي، ط ١، ١٩٩٨، ص ٢٢٧، بتصرف. وراجع **أهم الفروق بين الحجاج والبرهان**، المحاورة، مرجع سابق، ص ١٣٣.

حيوان؛ فالنتيجة ضـــرورية، بما يغاير تماما ما يحدث في الحجاج الخطابي من الجدل وآليات الإقناع ... إلخ[١].

٢–٣ الطبيعة اللسانية للحجاج وعلاقتها بمعرفية النمط الحواري في الخطاب:

مما ســبق نفهم أن *البرهان والحجاج* ينتميان إلى مجالين متغايرين متباينين؛ **فالبرهان** مجاله الاســتدلال المنطقي المنفصـــل عن اللغة الطبيعية التي قد تجد فيها بعض الالتباس أو الغموض أو عدم **التواطؤ اللفظي**[٢] ... إلخ، بيد أنه مرتبط بالعمليات العرفانية الذهنية العليا، المرتبطة بدورها بالإنشـــاء المنطقي للنموذج اللغوي في الدماغ البشـري، وهذا موضـوع آخر. أما **الحجاج** فمجاله الأوسـع هو الخطاب بكل محمولاته الدلالية والمقاصدية، ومن هنا كانت مركزيته مهمة في النسق الحواري الجدالي في الكتاب العزيز. وقد تجد في **العبارة البرهانية** نموذجا للإحالة على قضايا في الوجود؛ حيث إن تعالق الملفوظات في البنى الاســتدلالية البرهانية لا يقوم على طبيعة تراكب الملفوظات ذاتها، كما نعرف في التحليل اللساني، بل يقوم على القضايا التي تمثلها هذه الملفوظات؛ أي وقائع العالم وأحواله؛ كأن يقول قائل: أنا أشـــك إذن فأنا موجود ... إلخ. بينما في **العبارة الحجاجية الخطابية** فإن تآلف الملفوظات بها يستجيب لقواعد خطابية داخلية، لا علاقة لها بأوضاع العالم؛ فتآلفها مبني بالأساس على معنى هذه الملفوظات ذاتها[٣]، والمعنى في هذه الحالة، من جهة الإنجاز اللســاني، يرتبط بعوامل كثيرة، لا علاقة لها بما يحيل عليه الملفوظ في العالم، بل بما يقصده المتكلم أثناء إتيانه بفعل التلفظ، وهنا يقع جدال كثير بين الباحثين، لا مجال لعرضه بالبحث، أهمه ـــ برأيي ـــ مسألة اللب الذهني لقضية الاستعارة، **والمزج التصوري** الناتج عن تداخل المجالات الدلالية في العقل، وارتباط الملفوظات بدلالات مزجية تصورية لا وجود لها في الواقع ... إلخ.

---

(١) للمزيد من التفاصـيل: زكريا السـرتي: التحليل الحجاجي للخطاب القرآني .. نماذج وملاحظات، ضـمن التحليل الحجاجي للخطاب (بحوث محكمة)، كنوز المعرفة الأردنية، ط ١، ٢٠١٦، ص ص ٣١–٣٢.

(٢) يفرق **الأصوليون** بين **المشترك والمتواطئ** من جهة أن اللفظ المشترك هو اللفظ الواحد الموضوع لعدة معان وضعا أولا، أما **المتواطئ** فهو لفظ يُطلق على أشياء متغايرة، ولكنها متفقة في المعنى الذي وُضع اللفظ له؛ مثل كلمة لون؛ فالسواد لون، والبياض لون، والحمرة لون ... إلخ. وللمزيد من الأمثلة: عبد الحميد هنداوي: إعجاز الكلمة القرآنية: دراسة أسلوبية بلاغية، ، دار العلياء، القاهرة، ط ١، ٢٠١٣، ص ص ٧٧–٧٩.

(٣) لمزيد من التفاصيل والأمثلة، راجع: المظاهر اللغوية للحجاج، مرجع سابق، ص ص ٧٢–٨٠، وما حولها.

٣- الحجاجية المعرفية للخطاب القرآني:

سبق أن بيَّنَّا أن **حد الحجاج** ــ كما عند طه عبد الرحمن ــ أنه فعالية تداولية جدلية، هدفه إقناعي، و يعني هذا القول من **الجهة المعرفية** أن *الفعالية الحجاجية* صـــفة لكل خطاب (لغوي) طبيعي، لأن حقيقة الاستدلال في الخطاب الطبيعي أن يكون حجاجيا لا برهانيا صناعيا، كما سبق تفصيله. كما يعني أيضـــا أن الحجاج هو فعالية **[حوارية / تخاطبية]**، **[وتفاعلية / مقامية]**؛ أي إنه فعل لغوي illocutoire تداولي. ويُعد فطرة في الخطاب الطبيعي؛ يقول نجم الدين الطوفي: "إن الجدل صناعة تكاد تكون فطرية، إن لم تكن كذلك حقيقة؛ فنحن نرى العامة، بل الصـــبيان، تقع بينهم المناظرات على القانون الصناعي ... إنما العلماء استخرجوا لصناعة الجدل قوانين وضوابط وأسماء وألقاب تُعرف بها، وقرروا منها ما كان نظريا لا يُدرك بالبديهة، ولهذا نرى العلماء يحيطون منها ومن غيرها بما لا يحيط به غيرهم، لأن البديهي من ذلك مشترك، وزاد العلماء بالنظريات التي لا سبيل لغيرهم إليها."(١)

فالخطابُ الحِجاجي ــ كما يبين عبد الرحمن بودرع ــ يعتمد على الأدوات اللغوية والأساليب البلاغية من أجل بيان المعْنى المطابق لمقاصـد المتكلم، والمراد تبليغه للمُخاطَبِ وإقْناعُه به؛ أي من أجل أداء **وظيفةٍ إقناعية اسـتدلاليّةٍ**، وهي تغيير وجهةِ النّظرِ لدى المخاطَب وحمله على التحول عن موقفِه .ونجدُ للكلمةِ المفردَة نفسِـها حمولةً حِجاجيّةً أو طاقةً حِجاجيّةً عندَما نُدرِكُ أن مَعناها في الأصـلِ زِيدَ عليه معنى آخَر أو قيدٌ شرعيٌّ، أو أُخرِجَ من حَقيقةٍ إلى مَجازٍ، أو نُقِلَ من نَسَقٍ عَقَديٍّ إلى نَسَق عَقديٍّ مُناقضٍ... إلخ؛ فقَد جاءَ القُرآنُ الكريمُ بجملةٍ من الألفاظِ المعجميةِ المتداوَلَة ســـابقا ليبنِيَ عليها مَعانيَ غير مُتداوَلَةٍ، ويبني مَجْهولاً جديدا على مَعْلومٍ سـابقٍ. *ولا نُدرِكُ الحمولة الحجاجيةَ للكلمةِ إلا بمُناسـبتِها لسـياقِها الذي وَرَدت فيه، واسـتحْقاقِها مَكانَها، دون غيرِها مما قارَبَها من الألفاظِ المعجميةِ أو العبارات. وهذه الحرَكَةُ الكامنة في الكلمة هي التي سماها عبد الله صـولَة بحرَكَة الكلمة الحِجاجية*(٢).

---

(١) نجم الدين الطوفي الحنبلي (... – ٧١٦ هـ): عَلَم الجَدَل في علم الجَدَل، تحقيق فولفهارت هاينريشس فيسبادن، فرانز شتاينر، المعهد الألماني للدراسات الشرقية، بيروت، ١٤٠٨ هـ – ١٩٨٧ م، ص ص ٢٠٩-٢١٠.

(٢) عبد الله صـــولة: الحجاج في القرآن من خلال أهم خصـــائصـــه الأســـلوبية، الطبعة المشـــتركة بين دار الفارابي، بيروت، ومكتبة المعرفة، تونس، وكلية الآداب منوبة، تونس، ط ٢، ٢٠٠٦، ص ١٦٩.

وحرَكَة الكلمة الحِجاجية حرَكَةٌ قائمةٌ في الكلمةِ بناءً على ما سَماه "هرمان باريه"بالتَّداوليّة المدمجَة[1] Pragmatique integrée.

انظر القيمة الحِجاجية لقوله تعالى: {فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ} (آل عمران:٢٠) فهي تلقينٌ عام شامل، ليواجه به النبي – صلى الله عليه وسلم – كل المخالفين له في العقيدة؛ إن حاجَّك: يا محمد، النفرُ من نصارى أهل نجران قَدِموا المدينةَ للمحاجة. وظاهر المحاجّ فيه (المحاجَجَ فيه) أنه دين الإسلام، لأنه السابق. وجواب الشرط هو: {فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لله} في أمر عيسى صلوات الله عليه، وجادَلوكَ في أمر التوحيدِ، وخاصموك بالباطل. وقد يَعودُ الضميرُ على جميع الناس، لقوله بعد {وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ} انقدت لله وحده بلساني وقلبي وجميع جوارحي. وإنما خَصَّ جَلَّ ذكرُه بأمره بأن يقول: "أسلمت وجهي لله"، لأن الوجه أكرمُ جوارح ابن آدم عليه، وفيه بهاؤه وتعظيمه، فإذا خضع وجهه لشيء، فقد خضع له الذي هو دونه في الكرامة عليه من جوارح بدنه. وأسلم مَن تبعني على ديني، يقول كمقالتي. لَقَّنَ الله سُبحانَه وتعالى نَبيَّه صلى الله عليه وسلم أن يدرج من اتبعه – في إسلامه– وجهه لله ليكونَ إسلامهم بإسلام نبيهم صلى الله عليه وسلم، لا بإسلام أنفسهم، **لتلحق التابعة من الأمة بالأئمة**، فيما أوتوه من الانقياد وبراءتهم من الرجوع إلى أنفسهم في أمر الدين، *كما كانوا يقولون عند كل نازلة علم أو أمر: الله ورسوله أعلم*، فمن دخل برأيه في أمر نقص حظه من الاتباع بحسب استبداده. فقال تعالى عاطفا على الضمير المرفوع المتصل لأجل الفعل: {ومَن} أي وأسلم مَن اتَّبَعَني وأتبَعوا وُجوهَهم له سبحانه وتعالى. وللمفسّرين في المراد من هذا القول طرائق؛ إحداها أنه متاركة وإعْراض عن المجادلة؛ أي اعترفتُ بأن لا قدرة لي على أن أزيدكم بيانا، أي إنني أتيتُ بمنتهى المقدور من الحجة فلم تقتنعوا، فإذ لم يُقنعْكم ذلك فلا فائدة في الزيادة من الأدلة النظرية، فليست محاجّتكم إياي إلا مكابرة وإنكارا للبديهيات؛ قال فخر الدين الرازي: فإن المحِقَّ إذا ابتُلي بالمبْطل اللَّجوج فليقُلْ: أما أنا فمنقاد إلى الحق. وعلى هذا الوجه تكون إفادة قطع المجادلة بجملة: {أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ}، وقوله: {أأَسْلَمْتُمْ} دون أن يقال: فأعرِض عنهم وقُل

(١) انظر كتابه: تلوين الخطاب، ترجمة صابر الحباشة، الدار المتوسطية للنشر، تونس، ٢٠٠٧، ص ١٧٩، وكذلك كتاب: محاولات في تحليل الخطاب، صابر الحباشة، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، ٢٠٠٩، ص ١٣٥. والرأي أعلاه في تأويل قوله تعالى: "فقل أسلمتُ وجهي لله" لفضيلة الدكتور عبد الرحمن بودرع، من فتوى له على موقع مجمع اللغة العربية: http://www.m-a-arabia.com/site/16360.html

ســـلام، ضَـــرْبا من الإدماج؛ إذ أدمج في قطع المجادلة إعادةَ الدعوة إلى الإســـلام، بإظهار الفرق بين الدينين. يتبيَّنُ من مَعنى الآية أن القيمةَ الحِجاجية لعبارة: «فقُلْ أسـلمْتُ وجهي لله ومَن اتَّبَعنِ» تختزلُ مراحلَ كثيرةً وتطوي جدالاً لا فائدةَ فيه؛ فبدلاً من أن يُبادلَهُم مُحاجةً بمُحاجةٍ، أُمِرَ بقطع دابر الجدالِ، لأنه عَلم علمَ اليقين أن المحاجةَ لن تُفضيَ إلى نتيجةٍ، وكأن معرفةَ المقاصد وأحوالِ المتكلمين المحاجِّينَ تَقْضي بمُتاركتهِم والإعراضِ عن مُجادلتهم وليس عنهم.

٣–١ أين المناظرة القرآنية والحوار الحجاجي في الكتاب العزيز من هذا؟

مؤدى ما تقدم من كلام العلماء ـ السابقين والمعاصرين ـ أن **المناظرةَ** موافِقةٌ **لطبيعة المخاطبة البشرية الفطرية**، وبموافقتها هذه، وبتوخيها إكساب هذه المخاطبة شروط الاستقامة والصحة عن طريق الارتقاء بها إلى أن تكون صناعة لها قواعدها وأصولها ـ على حد قول بوشعيب راغين ـ تصبح صناعة المناظرة من أرفع الصناعات قدرا.

والقرآن الكريم هو النموذج الأكمل للمناظرة والمجادلة ضـــمن الخطابات الطبيعية التي حاولنا ـ باختصار شديد ـ بيان شيء من بنيتها المعرفية من جهة التداولية؛ فالخطاب القرآني، في عمومه، إنما هو جمع معجز من الوقائع الجدلية الحجاجية، تحتشد فيه صور مملوءة بالحجج والأدلة والبراهين في مسائل التوحيد وإثبات الصانع وإعجاز الخلق وقضايا الكون والمعاد ... إلخ[١].

* وهناك ملاحظة مهمة بهذا الصدد؛ فالترسيمة الحجاجية للحوار مع المؤمنين والكافرين عموما في القرآن الكريم ربما لا تخرج عن البنية المعرفية التالية[٢]:

- **مع الكافرين، [نموذج من سورة البقرة]:**

– **الطلب:** "وإذ قلتم يا موســـى لن نصـــبر على طعام واحد فادع لنا ربك يخرج لنا مما تنبت الأرض ..."

---

(١) يقول ابن قيم الجوزية: " إن القرآن الكريم مملوء بالاحتجاج، وفيه جميع أنواع الأدلة والأقيسة الصحيحة. وقد أمر الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم بإقامة الحجة والمجادلة؛ وهذه مناظرات القرآن مع الكفار موجودة فيه، وهذه مناظرات رسول الله صلى الله عليه وسـلم وأصـحابه لخصـومه وإقامة الحجة عليهم، لا ينكر ذلك إلا جاهل مفرط في الجهل." مفتاح دار السـعادة ومنشـور ولاية العلم والإرادة، تحقيق عبد الرحمن بن حســن بن قائد، طبعة مجمع الفقه الإســلامي، جدة، المملكة العربية السعودية، ١٤٣٢ هـ، ١٤٤/١.

(٢) زكريا السرتي، المرجع نفسه، ص ٤٧.

- **المنح:** " فإن لكم ما سألتم"
- **الغدر:** " ثم توليتم من بعد ذلك"
- **العقاب:** "ضُربت عليهم الذلة والمسكنة وباءوا بغضب من الله"

• مع المؤمنين، [نموذج من سورة آل عمران]:

- **الطلب:** "ربنا وآتنا ما وعدتنا على رسلك ولا تخزنا يوم القيامة"
- **المنح:** "فاستجاب لهم ربهم..."
- **الوفاء:** " الذين اتقوا ربهم ..."
- **الثواب:** " لهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها نزلا من عند الله ..."

وقد أتت نمطية المناظرة ضمن النسق الحواري العام في الكتاب العزيز موافِقةً لعادة العرب في تخاطبهم، ولخصوصية لسانهم، واستوفى المولى تبارك وتعالى في التراكيب اللغوية والصور البيانية المستعملة لغرض الإقناع كل الأشكال اللسانية الممكنة، التي نعرفها، والتي لا نزال نستكشفها، بقدر ما فُح لنا من فهم لكتاب الحق سبحانه؛ يقول الإمام الزركشي في نص مؤَسِّسٍ *لقاعدة معرفية تداولية* حول هذه المسألة الجوهرية: " ... فالمائل إلى دقيق المحاجة هو العاجز عن إقامة الحجة بالجليل من الكلام، فإنَّ من استطاع أن يفهم بالأوضح الذي يفهمه الأكثرون لم ينحط إلى الأغمض الذي لا يعرفه إلا الأقلون، ولم يكن ملغزا؛ فأخرج تعالى مخاطباتِه في مُحاجة خلقه في أجَلِّ صورة، تشتمل على أدق دقيق؛ لتفهم العامة من جليلها ما يقنعهم ويلزمهم الحجة، وتفهم الخواص من أثنائها ما يوفي على ما أدركه فهم الخطباء."[(١)]

٣-٢ القرآن الكريم إذن، بالنظر الفاحص لما تقدم، هو خطاب حواري، لأنه مسرح على رُكحه[(٢)] تتحاور الذوات وتتجادل وتتخاصم، ويُحاج بعضها بعضا. وهو أيضا حواري يتميز بأنه يقدم نفسه بوصفه "تغييرًا لوضع" و"حلا لمعضلة" حارت لأجل حلها العقول، وهو نبذ للعنف، الذي هو

(١) الزركشي (بدر الدين محمد بن بهادر بن عبد الله): البحر المحيط في أصول الفقه، تحقيق عبد القادر عبد الله العاني، وراجعه عمر سليمان الأشقر، وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية، الكويت، ط ١، ١٩٩٢، ٣٤/٢.

(٢) الرَّكحُ: الركن، والناحية والجانب، والساحة والفناء، والأرض الغليظة المرتفعة، والفعل "رَكَحَ" بمعنى لجأ إلى أو استند، وفي حديث لعمر رضي الله عنه لعمرو بن العاص، قال: ما أحب أن أجعل لك علةً **تركحُ** إليها.
راجع المعجم الوسيط، طبعة مجمع اللغة العربية بالقاهرة، ط ٦، ٢٠٠٩.

عكس الحجاج[١]: "أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين" (يونس: ٩٩). "فذكر إنما أنت مذكر لست عليهم بمسيطر" (الغاشية: ٢١-٢٢). "لا إكراه في الدين" (البقرة : ٢٥٦). وهو في منهجه التوجيهي الأكبر "*استجابة لسؤال أمة*"؛ فالقرآن بهذا المعنى إذن ***حجاجي أو ذو طبيعة حجاجية***؛ أي إنه **يرمي إلى تغيير وضع ذهني يترتب عليه ضرورة تغيير وضع مادي ما:** " ... كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد." (إبراهيم: ١). وهو بذلك أيضا خطاب سماوي/أو كتاب منهجي إلهي، هدفه الإصلاح وتغيير وضع قائم مناف للطبيعة والفطرة، ومن ثم **فهو خطاب حجاج لا مِراء.** ولقد اجتمع في القرآن من المعطيات اللغوية – الأسلوبية والبلاغية والدلالية والتركيبية – ما جعله خطابا حجاجيا لغويا متفردا عن غيره من سائر الخطابات، وذا وظيفة حجاجية متميزة، لأنه تفوق بالقدرة على التأثير في متلقيه، خصوصا الأوَّلين منهم، تأثيرا **حجاجيا** (**النمط المعرفي الإقناعي**)، ومن ثم **عقليا** (**النمط المنطقي البرهاني**)، بالإضافة إلى ما له من قدرة على التأثير **العاطفي** (**النمط الوجداني**) في قلوب أولئك المتلقين، ممن أذعنوا له وانقادوا تحت لوائه عن اقتناع ديني بحت، وعن عاطفة خالصة وإيمان محض؛ لكونه من عند الحق العزيز الحكيم سبحانه. انظر الخطاطة التالية التي تمثل جمعا لهذا الكلام بصورة موجزة، وقد عمدنا فيها إلى إضافة رأينا، وبعض الاصطلاحات، مثل **التعاضد** الخطابي و**الانغلاق** الخطابي (أو **التعاند** الخطابي) و**التنازع** الخطابي ... إلخ:

خطاطة (٢) النسق المعرفي العام لدائرة الحوار القرآني

النمط الحواري	امتداده الخطابي الشكلي	المحتوى المعرفي المرتبط به	النشاط المصاحب
التعاضد الخطابي (التعاون)	المشاورات	المعرفة الموسوعية في بعدها التخزيني	نشاط **الذاكرة** المرتبط بالكفاية الموسوعية المعلوماتية

(١) للمزيد من التفاصيل: بوشعيب راغين، الرابط السابق نفسه. وراجع رأيه المهم حول **النظرية العامة للإقناع**، في كتابه المعنون: "**دائرة الحوار**".

النمط الحواري	امتداده الخطابي الشكلي	المحتوى المعرفي المرتبط به	النشاط المصاحب
التنازع الخطابي	المناظرات	المعرفة المنطقية البرهانية (التأمل والاعتبار)	نشاط **العقل** بصفة أساسية المرتبط بالكفاية المنطقية البرهانية
الانغلاق الخطابي (الانقياد الذاتي وعدم الاعتبار بالآخر)	الاستهواء وصد الحوار (ذاتية الرأي)	العنف السيكولوجي والرمزي	نشاط **الوجدان** بشكل أساسي

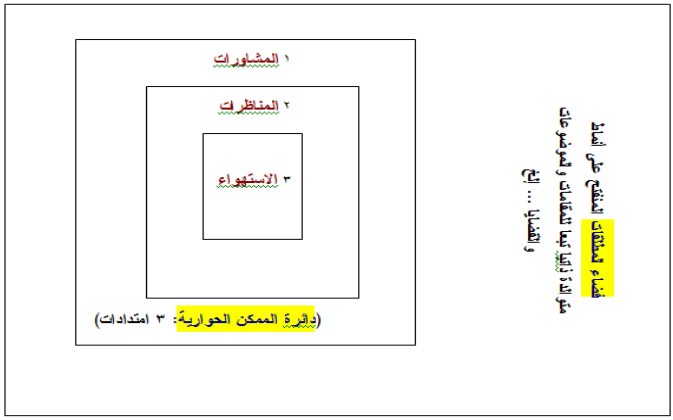

٣-٣ الحجاج الإقناعي والحجاج البلاغي في القرآن الكريم:

الحجاج الإقناعي يأتي مصطلح Pilgrimis Persuasive الفرنسي، وبالإنجليزية يُشتق من الإقناع Persuasion والحجاج Argumentation ويكون أيضا بمعنى الجدل الاعتراضي أو طرح الرؤية المدعمة بالحجج[١]. وجاء في الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم: " ... فَحَجَّ آدمُ موسى." أي غلبه

(١) راجع للتفاصيل: محمود عكاشة: تحليل الخطاب في ضوء نظرية أحداث اللغة: دراسة تطبيقية لأساليب التأثير والحجاج الإقناعي في الخطاب النسوي في القرآن الكريم، دار النشر للجامعات، ٢٠١٤، مصر، ص ٤٤.

وراجع الفقرة المهمة عن **الاستفهام الحجاجي والمقابلة البديعية** في طرح منظور محمد بازي **للتأويل التقابلي**، يونس الناصري: تضافر المكونات اللغوية لحجاج المتلقي .. الاستفهام نموذجا، ضمن التحليل الحجاجي للخطاب، مرجع سابق، ص ١٨٦-١٨٩.

بالحُجة، وفي حديث آخر عن الدجال: " إن يخرج وأنا فيكم فأنا حجيجه." أي محاججه ومغالبه بإظهار الحجة عليه[١]. فاللفظ ليس مستغربا على الخطاب العربي.

٣-٣-١ وقد مر بنا استغراق القرآن الكريم لمحمل أشكال التناظر والحوار الممكنة، المؤسسة على الجدل العقلي والإقناع، من خلال التركيب اللغوي الذي نقل إلينا هذه الأنماط وتلك الصور؛ يقول الإمام الزركشي: " اعلم أن القرآن العظيم قد اشتمل على جميع أنواع البراهين والأدلة، وما من برهان ودلالة، وتقسيم، وتحديد شيء من **كليات المعلومات العقلية والسمعية**، إلا وكتاب الله تعالى قد نطق به، لكن أورده الله تعالى على عادة العرب دون دقائق طرق أحكام المتكلمين، لأمرين: أحدهما بسبب ما قاله: "وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم." (إبراهيم: ٤). واعلم أنه قد يظهر منه بدقيق الفكر استنباط البراهين العقلية على طرق المتكلمين ... ومن ذلك الاستدلال على أن صانع العالم واحد؛ بدلالة **التمانع** المشار إليه في قوله تعالى: "لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا." (الأنبياء: ٢٢)، لأنه لو كان للعالم صانعان لكان لا يجري تدبيرهما على نظام، ولا يتسق على إحكام ..."[٢]

فالإقناع في النظرية الحجاجية لا يخضع لمنطق البرهان ولا للاستدلالات الرياضية المنطقية فحسب، بل يذهب إلى ما هو أبعد من ذلك؛ فكما يذكر فيليب بريتون: "تتنوع الوسائل المستعملة في الإقناع غاية التنوع، وتستخدم إجراءات معقدة تمتاح من غنى السلوك الإنساني."[٣]

---

(١) الحديث الأول عن أبي هريرة رضي الله عنه، ورواه البخاري ومسلم في صحيحيهما، قال عليه الصلاة والسلام: " احتج آدم وموسى، فقال له موسى: يا آدم أنت أبونا خيبتنا وأخرجتنا من الجنة..."، والحديث الثاني رواه مسلم وأحمد وابن ماجه والترمذي والنسائي.

(٢) الزركشي: البرهان في علوم القرآن، طبعة عيسى الحلبي، ط ٢، مصر، ٣٤/٢، د.ت. وقد اقتبس الإمام السيوطي النص نفسه، وأضافه إلى كتابه الإتقان في علوم القرآن، دار الكتاب العربي، ط ١، ١٩٩٩، ٢٨٢/٢، وأكمل السبب الثاني: " ... الثاني: أن المائل إلى دقائق المحاجة هو العاجز عن إقامة الحجة بالجليل من الكلام ....."، وهو النص الذي نقلناه عن الزركشي أيضا في هامش سابق، عن كتابه البحر المحيط في أصول الفقه.

(٣) فيليب بريتون: الحجاج في التواصل، ترجمة محمد مشبال، وعبد الواحد التهامي، المركز القومي للترجمة، مصر، ط ١، ٢٠١٣، ص ٦٦.

وللمزيد من التفاصيل والتحليلات عموما، يُراجع العلامة "حمادي صمود" بإشرافه: أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم، مقدمة النشر، منشورات كلية الآداب، جامعة منوبة، تونس، ١٩٩٨. و"محمد العمري": البلاغة العربية: أصولها وامتداداتها، نشر إفريقيا الشرق، ٢٠١٥. ج

٣-٣-٢ وللإقناع طريقان[١]:

- **اللغوي**: وتستخدم فيه الوسائل اللغوية، مثل التراكيب الدالة على الثوابت والحقائق والتأكيد، والأساليب الإقناعية المنطقية، مثل الشرط والاستثناء، والترقي في الحجاج حسب درجاته اللغوية، وبناء الجمل على هيئة قضايا منطقية: تبدأ بمقدمات وتنتهي بمسلمات ونتائج ... إلخ.
- **العقلي**: وهو الذي يخاطب فيه المتكلم من يحاوره بالحجة والدليل والمنطق (الكفاية التواصلية البرهانية) من خلال **التقنية المعرفية** المعروفة بالتدرج في إقامة الدليل أو الحجة، وهو التسلسل الذي يرتقي إلى نتيجة ـــ كما سنرى في حوار موسى/فرعون. كأن يبدأ بمقدمة تحوي الموضوع أو القضية، ثم العرض، ثم المشكلة، ثم الدليل والحجة، ثم النتيجة أو الحكم، ولذلك أسس وآداب، من أهمها، التجانس مع مقتضى العقل والمضمون، والأمثلة الواقعية ... إلخ.

٣-٣-٣ أما الحجاج البلاغي، فمعلوم أن البلاغة العربية تقوم بالأساس على معايير حجاجية إقناعية جمالية؛ فمن المشهور عن العتابي قوله: "*كل من أفهمك حاجته فهو بليغ*"، وهو هنا يحدد **بلاغة الاتصال** بشكل دقيق، وأحسن أبو هلال العسكري في الصناعتين تفسير قول العتابي؛ قال: " ... وإنما عنيَ. أي العتابي. إن أفهمك حاجته بالألفاظ الحسنة، والعبارة النيرة، فهو بليغ."[٢] ثم زاد الجانب **المعياري الجمالي**، وقرر أنه لا يمكن فصله عن الجانب الدلالي في البلاغة العربية؛ فعرَّف البلاغة جماليا: "كل ما تُبَلِّغُ به المعنى قلبَ السامع، فتُمَكِّنُهُ في نفسِه كَتَمَكُّنِهِ في نفسك، مع صورة مقبولة ومعرض حسن."[٣] فجَمَعَ بين الحُسنيين: الجانب الدلالي والجانب الجمالي في العرض والاستدلال[٤].

---

(١) محمود عكاشة: المرجع نفسه، ص ص ٤٨-٤٩، بتصرف.

(٢) أبو هلال العسكري: كتاب الصناعتين، تحقيق علي محمد البجاوي، ومحمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، ط ١، ١٩٨٦، ص ص ١٠-١١. ومن المعلوم عند كثيرين أن كتاب الصناعتين هو تلخيص للبيان والتبيين للجاحظ.

(٣) كتاب الصناعتين، ص ١١.

(٤) محمود عكاشة: المرجع نفسه، ص ٥٠. وراجع الكتاب المهم لمؤلفه ريموند جيبس: المقاصد في تجرب المعنى، الفصل الثالث الخاص بالمعنى والتواصل؛ حيث بيَّن المؤلف كثيرا من تقنيات التبليغ وجمالياته المعرفية:

أما عن دور البلاغة في الحجاج الإقناعي، فالأمر يحتاج إلى مصنف كامل، لكنني أكتفي بنص لابن الأثير له وجاهته المعرفية؛ قال: " مدار البلاغة كلها على **استدراج الخصم** إلى الإذعان والتسليم، لأنه لا انتفاع بإيراد الأفكار المليحة الرائقة، ولا المعاني اللطيفة الدقيقة، دون أن تكون مستجلبة لبلوغ غرض المخاطب بها."(١)

٤– أهم وسائل الحجاج الإقناعي في القرآن الكريم:

سنكتفي في هذه الفقرة بضرب نماذج ممثلة، نظرا لطبيعة الدراسة وحجمها، علما بأن كثيرا من هذه الوسائل نجدها في كتب البلاغيين وعلماء التفسير، لكنها متناثرة دون تحديد أو تقييد، كما نحاول عمله في هذه الورقة، حتى نقف على بنود القضية ومرتكزاتها التي نود التنبيه عليها(٢).

٤–١ وسائل الإقناع اللغوية والبلاغية: ومنها:

أ– التقرير بالجملة: كالجملة التي تثبت حكما تقريرا أو معنويا؛ نحو: " قال إني عبد الله. آتاني الكتاب. وجعلني نبيا. وجعلني مباركا ...." (مريم: ٣٠–٣١)؛ فكلها جمل تقريرية وصفية لتأكيد معنى النبوة في الحوار الشهير بيم مريم وبني إسرائيل.

ب – التأكيد بالجملة الشرطية: ويقوم ذلك بالأساس في الحوار على **القضية المنطقية:** " إني أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقيا." (مريم: ١٩)؛ فالجملة الشرطية "إن كنت تقيا" تدعم معنى الجملة الأولى، فهي سبب منها؛ فالمعنى: إن كنت تقيا فسوف تتصرف بتعوذي بالله جل وعلا؛ فجعلت صلاحه شرطَ عدم إيذائها؛ أي إن كنت تتقي الله تعالى وتخافه باستعاذتي واستجارتي به، فستنصرف عني دون إيذائي. وقوله تعالى: " فإما ترين من البشر أحدا فقولي إني نذرت للرحمن صوما فلن أكلم اليوم إنسيا." (مريم: ٢٦)؛ الفاء عاطفة، وإما شرطية، والفاء رابطة لجواب الشرط في: "فقولي"، والشرط يفيد

Raymond W.Gibbs, JR: Intentions in the Experience of Meaning, CH.3, Meaning and Communication, P 40, Cambridge Univ Press, 2nd ed, 2004.

(١) ابن الأثير (ضياء الدين): المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، تحقيق أحمد الحوفي، وبدوي طبانة، دار نهضة مصر، طـ ١، ٢٠٠٨، ٢/٦٤.

(٢) للمزيد من الأمثلة والتحليل والتفاصيل، يُنظر: محمود عكاشة: تحليل الخطاب، مرجع سابق، ص ص ٢٧١–٢٨١.

التخصيص، كالاستثناء، والتخصيص هنا مستفاد من: " إن كنتَ تقيا"، فإنه إذا كان على هذا التخصيص لم يؤذها[١].

جـ – التأكيد بالجملة المفسرة التي تأتي في معنى المفسر: قال تعالى: "فناداها من تحتها ألا تحزني قد جعل ربك تحتك سريا." (مريم: ٢٤)؛ "أن" تفسيرية، والجملة بعدها تفسيرية، وجملة "قد جعل" مستأنفة في حيز التفسير[٢].

د – تعميم المعنى للشمول: قال تعالى: " فإما ترين من البشر أحدا ... " (مريم: ٢٦)؛ ف "أحدا" يشمل كل واحد من البشر، في سياق الصوم صمتا، ليكون صمتها أنجع في إثبات عفتها، خلافا للمعهود في سياق الاتهام المقتضي للدفاع بالكلام والإتيان بالدليل لنفي التهمة. وأحد هنا تشمل النوعين **تغليبا**، والتنكير للتعميم الذي يجري على المفرد، والفائدة من ذكر الواحد هنا التشديد في النهي عن الكلام، وعدم التجوز ببعضه مع قريب أو صفي، ومثله "إنسيا" يُرادُ به الواحد من الجنس الذي يجري على إنسي[٣]. وتلك آلية لسانية مهمة جدا للتنبيه على المراد من خلال هذا النمط الحواري.

هـ – تخصيص المعنى: ومنه تخصيص العام وتخصيص بالأداة؛ ومن تخصيص العام لفظ "بشر"، فهو عام في النوعين وفي كل سن، وأريد به الخصوص في الخطاب في النوع الذكوري، وهم رجال قومها الذين تصدوا لاتهامها ليقيموا عليها الحجة والعقاب، وهم على الأرجح رجال المعبد[٤].

وهناك وسائل أخرى كثيرة يمكن الرجوع إلى مظانها، فقط أردتُ الإشارة إلى ما أراه أبرزها.

٤–٢ وسائل الإقناع الاستدلالية المنطقية:

وتأتي هذه الوسائل في معظمها نتيجة للتفاعل الدائم الذي أشرنا إليه في الخطاطة (١) بين الكفايتين الموسوعية (المعلومات القديمة) والمنطقية البرهانية، **وأهمها**:

---

(١) راجع التفاصيل في: الآمدي (سيف الدين علي بن يوسف) الإحكام في أصول الأحكام، تحقيق سيد الجميلي، دار الكتاب العربي بيروت، ط ٢، ١٩٨٦، ٣٨٢/١.

(٢) راجع للتفاصيل، على سبيل المثال، أبو حيان الأندلسي (أثير الدين محمد بن يوسف الغرناطي): تفسير البحر المحيط، دار الفكر، بيروت، ط ٢، ١٩٨٣، ١٧٠/٣–١٧١.

(٣) محمود عكاشة: مرجع سابق، ص ٢٧٥.

(٤) محمود عكاشة: نفسه، ص ٢٧٦.

أ – السبب والعلة: في الحوار الدائر بين مريم وجبريل عليهما السلام، نلاحظ عدم اقتناع مريم بالحمل دون السبب (الجماع)؛ فسبب الحمل مفقود، فهي ليست متزوجة، وليست ببغي، وهو ما يقع ضمن ما يُعرف **بالحجاج بالنقيض**؛ كأن تقول: إن لم يضاجع الرجل المرأة فلن تحمل، لأن ذاك هو السبب الطبيعي لحصول الحمل، لكن من أسباب اقتناعها بالمعجزة هو هزها الضعيف لجذع النخلة وسقوط الرطب في غير أوانه على أكثر أقوال المفسرين؛ ففي جريان الحدث وسقوط المعجزة ما دفعها للثقة والطمأنينة، من ثم محاجة قومها رغم وهن الولادة.

ب – سرد القضية المنطقية[١]: وتسلسلها: مقدمة، فمحمول، فنتيجة، *ونقضها* يتطلب حجة أقوى من النتيجة:

* مثال (١): الحمل من غير زواج معلن = الاتهام بالزنا / مريم غير المتزوجة حامل / النتيجة: مريم غير المتزوجة زانية. وهذا هو حكم قومها. وقد نقض كل هذا خطاب عيسى في المهد.

* مثال (٢): دخول الرجل الأجنبي على المرأة خلوتها = الشك والريبة / ظهر الملاك في هيئة البشر لمريم / النتيجة: مريم ارتابت منه. وقد نقض كل هذا إخبار الوحي عن نفسه: " إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلاما زكيا." (مريم: ١٩).

ج – السلم الحجاجي:

قضية السلم الحجاجي من أهم قضايا تحليل الإقناع في الخطاب عموما، وتفاصيله كثيرة ومتداخلة، لكنني سأسرد ـ بإيجاز ـ أهم قوانينه التي تعنيني هنا في مسألة الحوار وآلياته المعرفية.

تنقسم السلالم الحجاجية عموما ـ وفق ديكرو O. Ducrot ـ إلى نموذجين شهيرين[٢]:

*** العلاقة السلمية التفاضلية:**

يقرر ديكرو في كتابه العمدة (السلالم الحجاجية) المنشور عام ١٩٨٠ أن السمة الأساسية التي تميز الحجج عن الأدلة البرهانية العقلية، هي أن الحجج لا تقطع قطعا نهائيا في إثبات النتيجة التي تساندها،

---

(١) عكاشة: السابق، ص ص ٢٧٧–٢٧٨، بتصرف.

(٢) يمكن الرجوع إلى تفاصيل هذه المسألة بأمثلتها وتشعباتها في كتاب "مويشلير" الشهير: الحجاج والتخاطب، ص ص ٥٤–٥٥:

Moeschler, Jacques: Argumentation et Conversation; Eléments pour une analyse pragmatique du discourse, Hatier, Paris, 1985, Pp 54-55.

كما الحال في الدليل البرهاني، المعتمد على النمط الرياضي المحض، فالحجة تمثل شكلا من أشكال الترافع المساند لمرافعات أخرى ممكنة (راجع فكرة **فضاء المطلقات** في الخطاطة ٢) حسب المقام الخطابي وذهن المخاطَب وطبيعة الجدال ... إلخ. وفي **العلاقة التفاضلية الحجاجية** تكون جميع الحجج الواردة في الجملة (الملفوظ) خادمة للنتيجة نفسها، بناء على مبدأ **القوة الحجاجية** لكل دليل، وهو ما يسمى بـ **التساند الحجاجي**[١]، وهنا تدخل فيما يُعرف **بالفئة الحجاجية نفسها**: ومثال هذا:

- الحجة ١: حضر الحفل عمدة المدينة.
- الحجة ٢: حضر الحفل الوزير الأول.
- الحجة ٣: حضر الحفل رئيس الدولة.

فكلها حجج ضمن فئة واحدة، لأنها تقبل الحضور في ملفوظ واحد لأنها تتجه لمساندة النتيجة نفسها:

- لقد كان الحفل ناجحا حقا، فقد حضر العمدة ورئيس الوزراء، بل حتى الرئيس نفسه.
- حتى الرئيس قد حضر، إضافة إلى رئيس الوزراء والعمدة.

والملاحَظُ كذلك أنه رغم أن هذه الحجج تنتمي إلى فئة حجاجية واحدة تدعم النتيجة نفسها غير أنها تتباين في قوة كل حجة منها في إسناد هذه النتيجة الموحدة؛ فهناك حجة أقوى من حجة وأخرى أضعف من غيرها ... إلخ؛ ففي المثال: قوة حجة حضور الرئيس على حضور الحفل ليست بقوة حجة حضور العمدة أو الوزير، ولذلك أُطلق على الأمر **العلاقات التفاضلية في السلم الحجاجي**؛ بحيث يمكننا الآن صياغة التراكيب التفاضلية التالية[٢]:

- حضور الوزير الأول أقوى دلالة على نجاح الحفل من حضور العمدة.
- حضور الرئيس أقوى دلالة على نجاح الحفل من حضور الوزير الأول.
- حضور الوزير الأول أضعف دلالة على نجاح الحفل من حضور الرئيس.
- حضور العمدة أضعف دلالة على نجاح الحفل من حضور الوزير الأول.

---

(١) رشيد الراضي: المرجع السابق، ص ١٠٩.

(٢) لتفاصيل أكثر وشرح أعمق، رشيد الراضي، السابق، ص ص ١٠٩-١١٥.

*** العلاقة السلمية التقابلية:**

تنشأ هذه العلاقة عن مبدأ **التعارض الحجاجي**؛ فقد تكون الحجج الواردة في الملفوظ لا تتجه لإسناد النتيجة ذاتها، وإنما تساند كل حجة نتيجة معارضة للنتيجة التي تساندها الحجة الأخرى، وأُصطُلح على ذلك بـ **التعاند الحجاجي**(١). ويمكن تمثيل هذا رياضيا على النحو التالي:

بفرض أنه لدينا **متوالية** Progression من أزواج من الحجج المتعاندة، مَثنى مَثنى، تُسمى مثلا **المجموعة العنادية**(٢)، تكون صورتها:

[{ حجة١، حجة١*}، { حجة٢، حجة٢*}، ... { حجة ن، حجة ن*}]

بحيث يمثل الرمز * رمز العنادية؛ بمعنى أنه يفيد بأن الأمر يتعلق بحجة معاندة للحجة الواردة معها ضمن الزوج نفسه، كما هو واضح في المتوالية.

سنلاحظ ضمن هذه المجموعة أن كل زوج يشكل ما يمكن تسميته **الزوج العنادي**، ومعيار وجود العلاقة العنادية بين حُجتين هو أن تَقبلا معا الورود في ملفوظ من الملفوظات الحجاجية، بحيث يؤدي هذا إلى بروز تعاند حجاجي، وهو الأمر البين جدا في حوار موسى/فرعون، الذي سيأتي لاحقا، وقد أوضحنا فيما اقترحناه في الخطاطة (٢) فكرة التنازع الخطابي، والانغلاق الخطابي (التعاند) ضمن دائرة الحوار المفترضَة؛ حيث نلاحظ أن حجاجية موسى عليه السلام لفرعون تقع في جزء كبير منها ضمن هذه السلمية التقابلية، وهذا النمط من التنازع والانغلاق أو التعاند الخطابيين.

وقد صاغ "مويشلير"(٣) هذا الأمر بقاعدة رياضية عامة:

*" إذا قامت بين الملفوظين **علاقة عنادية**، صح أن نطبق عليهما مبدأ **التعارض الحجاجي**،*

*ومقتضى هذا المبدأ أنه: إذا كانت لدينا حجة "**ح**" تصلح لمساندة نتيجة "**ن**"،*

*فمن الضروري أن توجد حجة "**ح***" لمساندة النتيجة المعارضة "**لا (ن)**"؛ بحيث:*

*["**ح***" ليست بالضرورة هي "**لا (ح)**"]. "*

---

(١) رشيد الراضي، نفسه، ص ١١٦.

(٢) رشيد الراضي، نفسه، ص ١١٦، بتصرف.

(3) Moeschler: Ibid, Pp 54-55.

هذه القاعدة يمكن صياغتها في **تمثيل سُلمي** في الخطاطة التالية:

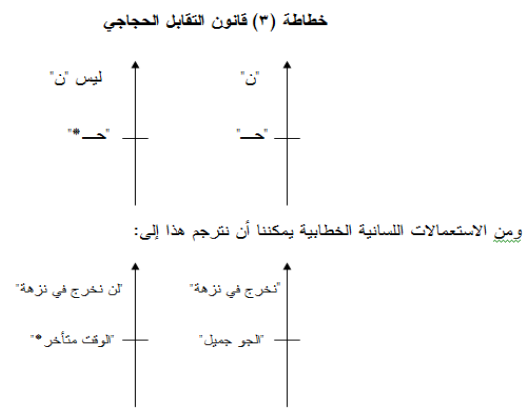

فكما هو واضح، ليس من الضروري أن يكون الملفوظ المعاند هو نفسه نفيٌ للملفوظ المساند(١)؛ كأن تقول في المثال أعلاه: " الجو ليس جميلا". وفي اللغة عموما هناك روابط تُفعل مثل هذا الأمر من التعاند المعرفي المتلازم على المستوى المعرفي الحجاجي في المستوى البنيوي اللساني، خصوصا في أساليب الإقناع التخاطبي، مثل الرابط "لكن"، و"غير أن"، المستخدمان بصورة شبه أساسية في جُل المحاورات؛ خذ مثلا:

عَليٌّ ماهرٌ بتلاوة القرآن، غير أنه خجول

هذه الجملة تقدم نسقا معرفيا مهما جدا في الخطاب التداولي، الحواري وغيره، قد نفهم منه الكثير؛ ففي سياق التداول حول مدى أهلية علي للإمامة في الصلاة؛ تأتي الحُجة الأولى لتوضح أنه: "ماهر بتلاوة القرآن"، وهي حجة مساندة للنتيجة: "يصلح للإمامة في الصلاة"، لكن الحجة الثانية تعاند هذه النتيجة: "إنه خجول"، فتكون مساندة لنتيجة مغايرة أو مقابلة: "لا يصلح للإمامة في الصلاة". ويمكن

(١) من الجدير بالذكر هنا أن نشير إلى مفهومين مهمين للاستعارة، هما **الاستعارة العنادية والاستعارة الوفاقية**؛ حيث تنقسم الاستعارة باعتبار طرفيها من هذه الجهة إلى: * **العنادية**: وهي التي لا يمكن اجتماع طرفيها في شيء واحد *لتنافيهما عقلا*؛ مثل اجتماع النور والظلام مثلا. وتشبه من هذه الجهة ما يُعرف في علم الدلالة **بالتضاد غير المتدرج**؛ مثل: ميت/حي، فلا توجد حالة وسط بينهما. * **الوفاقية**: وهي التي يمكن اجتماع طرفيها في شيء واحد *لعدم التنافي*؛ مثل اجتماع النور والهُدى. يقول تعالى: "أَوَمَن كان مَيْتًا فأحييناه وجعلنا له نورًا يمشي به في الناس" (الأنعام: ١٢٢)، ففي هذه الآية استعارتان: عنادية "ميتا"، ووفاقية الإحياء للهداية.

ـ بالطريقة نفسها ـ تمثيل الجملة وفق المخطط السابق الموضح للعلاقة التعاندية التي تكون فيها الحجج مساندة ومعاندة في آن واحد.

هذا، وهناك وسائل منطقية أخرى كثيرة، مثل الشرط القائم على تحقق المقدمة، والاستدلال بالواقع، والتمثيل المنطقي، والحجاج العقلي ... إلخ[١]، سيأتي شيء من تفصيل بعضها مع أنماط أخرى من النسق المعرفي الحواري، في المحاورة الكبرى في الكتاب العزيز بين موسى وفرعون.

٤-٣ ارتباط الحجاج الإقناعي ببعض القدرات الذهنية والتواصلية لدى المتكلم (المحاوِر):

ذهب اللغوي الشهير "ليونز" Lyons إلى أن تسييق الأفكار لغويا يمكن أن يأخذ صورتين: إحداهما يدل فيها على الإجراء الذي يمكِّن المتكلم الفطري للغةٍ ما من إنتاج أقوال خاصة بمقامات معينة، تتميز بالانسجام الداخلي، وبالتالي فهي تقتضي منه أن يتملك مهاراتٍ ومعارفَ تتجاوز مكونات الجهاز الذي يتكلم به. والثانية فهي العملية التي يقوم بها اللغوي في وصفه للغةٍ ما[٢]. وكما هو واضح، ففي التصور الأول ما يحيل إلى **مفهوم الملكة اللغوية** الذي خاض فيه "هايمز" Hymes، ولاحظ من خلاله أن حاجة المتكلم إلى إنتاج الأقوال لا تقتصر على الملكة اللغوية أو الملكة الدلالية، بل تتوقف على جملة أخرى من الأعراف المقامية الاجتماعية الداخلة في الاستخدام السليم للبنية التي تتيح له اكتشاف دلالتها على صورة أشمل، مثل وجوب معرفته بمنصبه ومنصب مخاطبيه، والمكان والزمان اللذين يكتنفان حدث التخاطب، وقدرته على استخدام الملائم من العبارات، ومعرفة المعطيات الجغرافية والثقافية المغلِّفة لفعل القول ... إلخ[٣]. وبالتالي فإن ليونز قد تخطى ما وضعه فيرث Firth لمفهوم التسييق، بتقييده على ما يفعله اللغوي فقط، فجعله مجاوزًا للنقائص التي تحصر مقدرة المتكلم المثالي في الجانب اللغوي المتعلق بجهاز اللغة فقط، كما عند تشومسكي في الأوليات التنظيرية التي انطلق منها، وأضحت عنده العوامل. أي عند ليونز. التي يقدِّرُ اللغوي أنها سياقية هي ذات العوامل التي تحدد إنتاج المتكلم للأقوال وتأويلها في مقامات واقعية محددة، أو ما سماه "هاليداي" Halliday

(١) يمكن مراجعة التفاصيل، عكاشة، المرجع نفسه، ص ص٢٧٨-٢٨١.

(2) Lyons, J: Semantique Linguistique, Librairie Larousse, 1980, P 236.

(3) Lyons: Ibid, Pp 200-208.

وآخرون بالنصـــوص، بل إنه جعل مجموع هذه العوامل يتجاوز ما عُرف في بعض الاتجاهات الدلالية المتأثرة بالمنطق **بالمعارف ذات الطبيعة القضـــوية**، أو ذات **المحتوى القضـــوي**؛ التي عادة ما تقرن مدلول القضـــية بعمليات التحقق الجارية من لدن المتكلم(١)، والمتصـــلة **بمقدرته الدلالية** Semantic Competence، وهذا ـ رغم ميل ليونز إلى التوليدية ـ قاده إلى تبني مفهوم واسع للمقدرة التواصلية المقترنة في نشأتها باعتراف عميق بأهمية البعد الاجتماعي الثقافي للممارسة اللغوية.

وصـــلة **المقدرة التواصـــلية** بالبعد الاجتماعي الثقافي للغة وتجاوزها لمجموع المعارف اللغوية البسيطة وتمكينها المتكلم من إنتاج الأقوال أو تقبلها في مقامات مخصوصة ... إلخ، كل هذا أدى إلى تباين في آراء المنظِّرين حول جملة **المكونات** التي تتفرع هذه المقدرة إليها، وقد لخص هذا الأمر خالد السـويح(٢)، ونورده هنا للأهمية المرتبطة بالبعد المعرفي للنسـق الحواري، ضـمن السـياق التداولي عموما، والتداولي البلاغي في القرآن الكريم خصوصا، انظر الجدول التالي:

---

(١) إذا تذكرنا المحاورة التي دارت بين "الكندي" الفيلسوف و"المبرد"، حين قال الكندي للمبرد: إني لأجد في كلام العرب حشوا؛ يقولون: زيد قائم، وإن زيدا قائم، وإن زيدا لقائم، والمعنى واحد، فأجاب المبرد اللغوي الماهر: بل المعاني مختلفة؛ زيد قائم إخبار، وإن زيدا قائم جواب عن سؤال سائل، وإن زيدا لقائم جواب عن إنكار منكر قيامه، فسوف نلاحظ هنا موقف الفيلسوف الذي توقف فقط ولم ير في كلام العرب إلا المحتوى القضوي (قضية نسبة القيام إلى زيد) وموقف اللغوي الذي نظر إلى المعنى الإنجازي Propositional الذي يراعي حال المخاطب. بل إن العرب فطنوا إلى ما أبعد من ذلك؛ فعندهم: " الثناء أقوى من المدح لأنه مدح مكرر، والسب أقوى من الشتم، لأنه إطناب في الشتم وإطالة فيه، واللمز أجهز من الهمز، والإبلاغ أشد اقتضاء للمنتهى إليه من الإيصال، والذكاء تمام الفطنة، والجور أقوى من الظلم، لأن الظلم نقصان الحق، والجور العدول عنه، والفزع أقوى من الخوف، لأنه خوف مفاجئ... إلخ". انظر: أبو هلال العسكري: الفروق في اللغة، لجنة تحقيق التراث، دار الآفاق الجديدة، ط١، ١٩٨٣، ص ٤٢ وما بعدها.

(٢) خالد السويح: المرجع نفسه، ٢/٥٥٠. وقد نقله عن Baylon&Mignot:

- Baylon. C et Mignot. X: Semantique du Langage, Initiation Editions Nathan, Paris, 1995, P 185.

(المكونات الفرعية للمقدرة التواصلية في صلتها بالبعدين الاجتماعي والثقافي للغة)

عند Daniel Coste	عند D. Abbou	عند H.Canale and M. Swain	عند S. Moirrand	عند Jan A. Van Ek
١. الإحاطة بالمعارف اللغوية. ٢. القدرة على إنتاج النصوص. ٣. الإحاطة بطرق الإحالة. ٤. الإحاطة بطرق بناء العلاقات. ٥. الإحاطة بطرق التصرف في المقامات.	١. المقدرة اللغوية. ٢. المقدرة الثقافية الاجتماعية. ٣. المقدرة المنطقية. ٤. المقدرة الحجاجية ٥. المقدرة السيميائية	١. المقدرة النحوية. ٢. المقدرة الخطابية. ٣. المقدرة على توخي الخطط.	١. المقدرة اللغوية. ٢. المقدرة الخطابية. ٣. المقدرة الإحالية. ٤. المقدرة الاجتماعية الثقافية.	١. المقدرة اللغوية. ٢. المقدرة الاجتماعية اللغوية. ٣. المقدرة الخطابية. ٤. المقدرة على بناء الخطط. ٥. المقدرة الاجتماعية الثقافية. ٦. المقدرة الاجتماعية.

وواضح من الجدول أن معظمهم يثبت المقدرة اللغوية، وإن سماها أحدهم النحوية، وأن التوسيع والتقليص في المكونات الفرعية يقترن بالارتباط بالعوامل النفسية والاجتماعية والتخاطبية المقامية المكتنفة لحدث القول، وهو ما دفع "أوريكيوني"، كما تقدم في أول هذه الدراسة، إلى تبني **مفهوم المَقدرة المُوَسَّعَة** Hyper-Competence في اهتمامها بالذاتية في اللغة، وقسمته إلى الطبقات Strata الأربعة من الكفايات التي بيناها فيما سبق، وكما اتضح التفاعل الدينامي القائم بينها، بحيث يصعب الفصل بين إسهام كل منها في الحدث الخطابي عموما، والحواري الحجاجي خصوصا.

٥- النموذج الحجاجي للمحاورة القرآنية الكبرى بين موسى وفرعون: الأسس المعرفية وأنماط النسق البنائي

القرآن الكريم خطاب لغوي ذو طبيعة حوارية أو تحاورية واضحة المعالم؛ حيث اشتمل على **معجم حواري غني** (حوار، وتحاوُر، وجدال، ومجادلة، وحِجاج، وشورى، ومشاورة، وتشاور... إلخ). بل إننا نجد فيه كذلك الحوار النفسي الداخلي؛ مثل حوار إبراهيم مع نفسه في معرض بحثه القلق عن إله (الشمس، والقمر، ثم اهتداؤه إلى الله تعالى)[1]...إلخ من أنماط المحاورة القرآنية بمختلف صنوفها وتنوعاتها. ويعد الحوار من أهم أشكال التفاعل الخطابي المعرفية التي سبق تفصيلها وتخطيط بعض مسائلها الخصبة، وهو المجال الطبيعي والحقيقي للحجاج؛ ففيه تُعرض الحجج والحجج المضادة. ويقوم الحجاج هنا بدور فعال لضمان الانسجام (الحَبك أو الارتباط) coherence بين وحدات الخطاب وفقراته. وقد تنبه الكثير من اللسانيين الحداثيين إلى العلاقة الوثيقة القائمة بين الحجاج والحوار، انطلاقا من جهود مدرسة جنيف السويسرية المتمثلة في أعمال أوزفالد ديكرو، ونظرية التحليل الحواري أو التخاطبي التي وضع أسسها وطورها كل من إيدي رولي Eddy Roulet وموبشلير Jacques Moeschler، في الكثير من كتبه، خصوصا كتابه الشهير "الحوار والحجاج" المشار إليه سلفا. وسنقدم هنا نموذجا لمحاورة طويلة بين موسى وفرعون من سورة الشعراء (الآيات: ١٠-٥١) التي تبدأ بقوله سبحانه: {وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰ أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ قَوْمَ فِرْعَوْنَ ۚ أَلَا يَتَّقُونَ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَارُونَ} وتنتهي بقوله تعالى: {إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا أَن كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ} (الشعراء: ١٠-٥١).

(١) بوشعيب راغين: خصائص البنية الحوارية وأسسها المعرفية الحجاجية في القرآن الكريم، مرجع سابق، الرابط نفسه. وقد أفدنا منه كثيرا وطورنا من خلال الرؤية التداولية، في هذا التحليل الماتع.

٥-١ معلوم أن كل قول يوجد خلفه قائل/ محاوِر؛ أي إنه يوَجَّه إلى مخاطَب/ محاوَر، ولكل واحد من المتحاورين وضع (status) خاص ودور (role) محدد في الحوار، فالأول **عارض** أو مقترِح (proponent) والثاني **معارِض** (opponent)[١].

٥-١-١ وتنقسم بنية هذه المحاورة إلى فصلين أساسيين:

- **الفصل الأول**: يمتد من الآية ١٠ إلى الآية ١٧، وهو يتعلق بما قبل الحوار الفعلي بين موسى وفرعون.

- **الفصل الثاني**: ينطلق من الآية ١٦ وينتهي عند الآية ٥١، وهو يهم الحوار والمناظرة التي وقعت بين موسى وفرعون، مع تدخل أطراف أخرى (الملأ والسحرة).

ويعد **الفصل الأول** بمثابة **مقدمات** (Prolegomena) ضرورية للحوار / المناظرة المرتقبة. وهذه المقدمات تتمثل في ضرورة الإعداد الكامل — روحيا ونفسيا وماديا – لذلك المشهد التواصلي وما يقتضيه من امتلاك لعناصر القوة (مؤازرة هارون لموسى بوصفه الأخ والرفيق في دعوته ومواجهته لفرعون. والدعم الإلهي: العون في حل عقدة اللسان وطلاقته والإحساس الروحي بالرعاية الإلهية). وقد جاء هذا الفصل في حوار ثنائي بين الله عز وجل وكليمه موسى عليه السلام.

أما **الفصل الحواري الثاني** فيمثل **صلب المشهد الحواري** العام ولبه؛ إذ يتضمن مراحل المناظرة الحوارية التي جرت بين موسى وفرعون. ويبدأ هذا الفصل بخطاب موسى إلى فرعون من خلال تقديمه لنفسه ولأخيه: "إنا رسولُ ربِ العالمين"، وفي هذا ما يسمى معرفيا **بالاتصال الأولي**، أو ما يعرف في علم التواصل الحديث **بآلية التعارف**[٢] Mechanism of Contact، كما أنها **إعلام بماهية المحاوِر**؛ أي بوضعه (status)؛ (فهو رسول الله)، وفي هذا تلميح قوي لشخصية المحاوَر (فرعون) الذي يدعي الألوهية والربوبية، وإعلان كذلك عن مهمته التي جاء أو أُرسل من أجلها بمعية أخيه: "أن أرسل معنا بني إسرائيل". أعقب هذا الرد الاعتراضي من فرعون ليُذكر موسى بمساره بين أهل فرعون:

---

(١) بوشعيب راغين: خصائص البنية الحوارية، المرجع نفسه، الرابط نفسه. وراجع تفاصيل مهمة عن بنية الحقل الدلالي في القرآن الكريم، وارتباطها بكيفية تركيب لغة القرآن للطبقات الدلالية عموما، التي تمنح إمكانية تنظيم التصورات فيه، والتي ترتبط أيضا بقضية البنية التحليلية للحجاج، للمؤلف نفسه: البنى التصورية واللسانيات المعرفية في القرآن الكريم، عالم الكتب الحديث، الأردن، ط ١، ٢٠١١، ص ٢٦٨ وما بعدها.

(٢) للتفاصيل: نور الدين رايص: اللسانيات المعاصرة، المرجع السابق، نظرية التواصل وتحولاتها، ص ٦٧، وما بعدها.

"ألم نربك فينا وليدا ولبثت فينا من عمرك سنين، وفعلت فعلتك التي فعلت وأنت من الكافرين". وقد استعمل فرعون هنا استفهاما غير مباشر (بلاغيا) وضمنه **معنى حجاجيا إبطاليا**. كما سلك فرعون في رده هذا مسلكا يعرف في مجال المناظرة **بالغصب** (وهو من الآليات أو الصفات المذمومة في علم المناظرة)، فعِوضَ أن يطلب من محاوره تقديم الدليل على صحة دعواه (وجود رب للعالمين وكونه رسولا منه)، سارع إلى إبطال هذه الدعوى بواسطة الطعن والتكذيب واتهامه بالكفر (أي الكفر بفرعون "الإله")[1]، وهنا يدخل في دائرة **الانغلاق أو التعاند الخطابي**، التي سبق أن أوضحناها. بل إنه زاد بالطعن في شخص موسى عليه السلام، فيما يُعرف بـ **الحُجة الموجهة إلى الإنسان**؛ بمعنى التوجه إلى ذات الإنسان، وليس إلى موضوع المناظرة نفسه والحُجج التي يقدمها المحاوِر، لكن النبي الكريم قطع عليه سبيل الانغلاق الخطابي بنبله واعترافه بالقتل الخطأ، وذكَّره أنه مؤيد بالحُكم من رب العالمين، ما اضطر فرعون إلى استئناف المناظرة وفتحها من جديد بسؤاله:

وما رب العالمين؟ و"ما" في هذا الاستفهام تدل على أنه طلب معرفة حقيقة الرب؛ فأجاب موسى: "رب السماوات والأرض وما بينهما إن كنتم موقنين"، وهذه إجابة تبين وتشرح لفرعون حقيقة إله موسى، وهي إجابة مختصِرة وجامعة ومذيلة، أو مقيدة بشرط اليقين والاعتقاد والإيمان؛ أي رب الكون بسماواته وأرضه وموجوداته، وهذه المظاهر الطبيعية تمثل بالطبع مجال اليقين والبرهنة على وجود رب العالمين. من هنا ***فجواب موسى التفسيري لحقيقة الرب لا يخلو من دلالة حجاجية ومن توجيه حجاجي***[2]. غير أن فرعون المعانِد يستمر في توجيه **المغالطات** إلى شخص موسى، لأنه فاقد للحُجة؛ فقد نعته بالجنون: "إن رسولكم الذي أُرسل إليكم **لمجنون**"، مؤكدا السخرية والاستهزاء باللام، وفي سياق آخر كان مؤكدا لهذا الأمر أيضا من **المغالطات الحجاجية**: "وفي موسى إذ أرسلناه

---

(١) بوشعيب راغين: خصائص البنية الحوارية، المرجع نفسه، بتصرف.

(٢) بوشعيب راغين: خصائص البنية الحوارية، نفسه. مع ملاحظة أن موسى استعمل في إجاباته وردوده ضمير المخاطب الجمع (استعمال الضمير)، ويعني هذا أن موسى كان يوجه خطابه إلى فرعون ومن معه من الملأ؛ أي علية قومه وحاشيته المقربة. راجع تفاصيل تحليلية أكثر: آمنة بنت علي: الإقناع .. المنهج الأمثل للتواصل والحوار: نماذج من القرآن والحديث، مجلة التراث العربي، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، العدد ٨٩، السنة الثالثة والعشرون، آذار "مارس" ٢٠٠٣، محرم ١٤٢٤، والمقالة منشورة إليكترونيا أيضا على موقع الحوار اليوم، بإشراف د. خالد حسن هنداوي، بتاريخ: ٤ يناير، ٢٠١٢: http://www.alhiwartoday.net/node/3211

إلى فرعون بسلطان مبين. فتولى بركنه وقال ساحر أو مجنون." (الذاريات: ٣٨-٣٩)؛ فكيف يتفق أن يكون ساحرا بما يقتضيه هذا من الذكاء والفطنة، مع المجنون. وهذا هو **الحجاج المغالطي** fallacious argument أو **البارالوجيزم**[1] Paralogism، لكنه بمحاورته هذه ينتقل ليدخل مع النبي في دائرة **التنازع الخطابي**، كما بيَّنَّا تفاصيلها آنفا.

إن مثل هذا النمط من الحجاج ميزته أنه يعمل في نسق متداخل مع بقية الأنساق المحيطة به؛ بحيث إن المتلقي لا يستطيع النظر إلى جزء دون الآخر، لكون جميع مكونات أجزاء الصورة في تناغم وتفاعل مستمر، وفقا لما قدمناه من مراحل التعاند والتعاضد والغضب والإبطال ... إلخ، بما يجمع عناصر التفكير التحليلي والتركيبي معا، أو ما يُسمى **التفكير التنسيقي**[2]؛ انظر الشكل التالي:

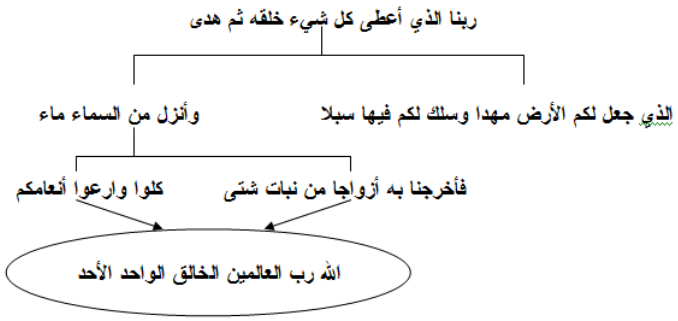

٥-١-٢ اتجاه فرعون إلى الانغلاق أو التعاند الخطابي التام:

دفعت سخرية فرعون ومغالطاته الحجاجية المستمرة النبي موسى عليه السلام إلى **إعادة التذكير** بحقيقة الإله الذي ينكره فرعون وقومه: "قال رب المشرق والمغرب وما بينهما إن كنتم تعقلون". ويظهر أن في العبارة الأخيرة: "إن كنتم تعقلون" رد ذكي ومناسب على اتهام فرعون له بالجنون؛ فهو يحتكم إلى مقياس العقل ويدعو فرعون وقومه إلى استخدام هذا المقياس؛ فكيف لمجنون إذن أن يدعو إلى استعمال العقل؟ وبهذا نستخلص أن هذه العبارة (إن كنتم تعقلون) استعملت هنا **استعمالا حجاجيا إبطاليا أو تفنيديا** refutable غايته تقويض ادعاء الخصم (فرعون) وتبكيته ونسفه؛ فرد موسى ذو طابع حجاجي

(1) argument violating principles of valid reasoning, which is called: a fallacious argument, Merriam-Webster Dictionary, by Merriam - Webster Inc, Edition 2012.

(٢) لطيفة آل دليل: المرجع نفسه، ص ٧٦.

إبطالي. وبعد هذا الرد الحجاجي ذي الطابعين: **الإقناعي والتبكيتي**، يأتي تعقيب فرعون المغلف بالتهديد بالسجن: "لئن اتخذت إلها غيري لأجعلنك من المسجونين"، وهو تعقيب يومئ إلى اتجاه فرعون إلى سد باب الحوار وإغلاقه نهائيا؛ لاستشعاره ضعف موقفه وحججه الواهية أمام قوة حجاج النبي الكريم، وهو ما يُعرف **بالعنف الحجاجي**، الذي يلجأ إليه الخصم الضعيف لإغلاق المجال التداولي الذي تنتمي إليه المحاورة؛ فهذا المجال يقتضي نوعا من التوازن بين الحجج ومقارعة الدليل بالدليل، لا بالاستهزاء والتهكم.

٥-٢ موسى عليه السلام يلجأ لتقنية السلم الحجاجي المتدرج:

فطن موسى عليه السلام إلى خبث فرعون وهدفه في هدم المناظرة، فلجأ إلى ما نعرفه اليوم في اللسانيات وتحليل الخطاب بقوة التساند الحجاجي وسلمية التدرج الإقناعي، التي تحدثنا عنها آنفا؛ فأسلوب موسى عليه السلام في هذا الحوار الحجاجي يتميز بتقنية معرفية مهمة جدا في الحوار الإقناعي، هي **التدرج في إقامة الدليل والحجة**، وعدم إدراج كل البراهين والحجج دفعة واحدة، بل الاقتصار على الضروري منها حسبما يتطلبه الموقف، وتقتضيه الحاجة إلى البيان والإقناع أو الرد؛ فموسى لم يتعجل في عرض تلك المعجزات الباهرة أمام أنظار فرعون وملأه، بل إنه لم يظهرها إلا في الوقت المناسب؛ أي عندما هدده فرعون بالسجن؛ وهنا تحديدا قدم اقتراحا يتمثل في الإتيان بشيء مبين؛ أي الإتيان بدليل مقنع يؤكد صدق دعواه وصحة رسالته. وفي هذا العرض رغبة من موسى، من جهة، في استمرار الحوار وعدم إغلاق بابه، ومن جهة أخرى الاستطراد في إثبات براهينه وحججه المقوِّضة والناسفة لاستدلالات خصمه (فرعون)، ومن ثم التأثير على الحاضرين وحملهم على الإقناع persuasion الذي يمثل الهدف العام للمناظرة[١].

وافق فرعون على عرض موسى بغية التأكد من صدق دعواه: "إن كنت من الصادقين"؛ وفي هذا القبول نوعٌ من **التوافق الجزئي** Partial Accord في المناظرة بين المتحاوِرَين، فما كان من النبي الكريم إلا أن بدأ في إظهار ما لديه مدعوما من رب العالمين؛ فنوَّع في عرض المعجزات المرتبطة بالحجج التي قدمها بين: الحجج والأدلة العقلية، والحجج والأدلة الحسية المرئية والملموسة، التي تعد حججا تجريبية غير قابلة للدحض والإبطال. فما كان من فرعون إلا المزيد من الإنكار؛ متهما موسى ليس بالجنون،

(١) للتفاصيل: راغين: خصائص البنية الحوارية، نفسه.

بل بالخداع والتلاعب في وصفه له بالساحر العليم، من خلال توجيه الخطاب إلى من معه من الملأ طالبا مشورتهم. ولعل في هذا التقرير نوعا من الإحساس بالضعف والانكماش والاندحار: "قال للملأ حوله إن هذا لساحر عليم. يريد أن يخرجكم من أرضكم بسحره فماذا تأمرون." بل نجد في قوله أيضا نوعا من المكابرة التي هي بمثابة منازعة(١).

٥-٣ وقد اختتم هذا الفصل الثاني من المحاورة – ومعه المشهد الحواري برمته – بسرد أحداث ووقائع حوارية انتهت بنجاح المناظرة من منظور الحكم العقلي الذي نحكم به على المحاورة كلها، خصوصا بعد إيمان السحرة الذين دعاهم فرعون لمغالبة موسى ومقارعته، وفي لجوء فرعون إلى السحرة لجوء إلى آلية من آليات الحجاج تدعى "**حجة السلطة**" Argument of Authority؛ فالسحرة كانوا يتمتعون بسلطة علمية واجتماعية اعتبارية ومتميزة في ذلك العصر. وهذه النتيجة (إيمان السحرة) تعني انهزام فرعون واندحاره أمام موسى والملأ، بل أمام كل الحاضرين من عموم الناس. وقد تجسد انهزام فرعون بعد سجود السحرة: "فأُلقي السحرة ساجدين". ونلاحظ استمرار تعنت فرعون، بعد قولهم: "آمنا برب العالمين. رب موسى وهارون"، في قوله: "آمنتم له قبل أن آذن لكم." فهل الإيمان يحتاج إلى إذن؟ ولعل هذا القول دليل على الحالة النفسية المندحرة والمهزومة التي وصل إليها فرعون. ثم استمرت المواجهة بين موسى وفرعون من خلال أحداث لاحقة انتهت بغرق فرعون وأتباعه ونجاة موسى ومن معه، كما نعلم من السياق السردي الوارد في الذكر الحكيم.

لقد سلك كل من موسى عليه السلام وفرعون استراتيجية حجاجية محددة، كان الغرض منها تعضيد موقف كل منهما وإبطال الموقف المضاد لخصمه والعمل على تقويضه ونسفه، في متسلسلة من الدليل ونقيضه المعاند للنتيجة (الهدف)، وقد استخدما في سبيل ذلك الغرض طائفة من الحجج والحجج المضادة المتعاندة المتسلسلة والمتنوعة، التي تذكرنا بنمط **السلم الحجاجي ذي العلاقة**

---

(١) للمزيد: راغبن: خصائص البنية الحوارية، نفسه. وقد فصَّل نيكولاس ريتشر الكثير من هذه الأنماط التحاورية، وحجج البرهان والسلطة ... إلخ، وعرض أمثلة لها وحللها، انظر:

Nicholas Rescher: Cognitive Pragmatism; The Theory of Knowledge in Pragmatic Perspective, Models of Justification, P 26, The Role and Principles of Presumptions الاستدلال بالقرينة Pp 27-32, University of Pittsburgh Press, 2001.

التقابلية. ويعكس هذا المســـار، أو البرنامج الحجاجي المتدرج، الذي تبناه كل طرف الطابع القوي والديناميكي للحوار الذي دار بينهما.

والخطاطة التالية تلخص هذه **البنية التحاورية الخارجية** بكل بنودها السالفة الذكر:

خطاطة (٤) البناء المعرفي الخارجي العام لمحاورة موسى وفرعون في القرآن الكريم

المرحلة الأولى (الفصل الأول)	المقدمات الحوارية للمشهد التواصلي	الحوار بين الله تعالى وموسى عليه السلام
		الإعداد المادي والروحي والوجداني النفسي للنبي الكريم (الدعم السماوي): "فاذهبا بآياتنا إنا معكم مستمعون"
المرحلة الثانية (الفصل الثاني)	السلم الحجاجي ذو العلاقة التقابلية المتدرجة	**الصلب الأساسي للمناظرة (جسم المحاورة الرئيسي)**
		• **آلية التعارف الحواري أو الاتصـــال الأوَّلي**: تقديم موســى وأخيه لنفسيهما. وبها إعلام بماهية المحاورِ Status: "إنا رسول رب العالمين" • **غصب فرعون للمناظرة (الانغلاق الخطابي) + الاستهواء**: – بدأ فرعون بالاعتراض مباشـرة، واسـتخدم تقنية **الحجاج الإبطالي**. – **اســتخدام آلية الحجة الموجهة للشــخص**: والهدف هدم الموضوع الأساسي وتحويل مسار المناظرة لإغلاقها. • حجية موسى برد مكر فرعون من خلال اعترافه بالقتل الخطأ. • اضطرار فرعون لاستئناف المناظرة، بسؤاله: "وما رب العالمين" ؟ • استمرار **التعاند الحجاجي** من قبل فرعون بتقديم **المغالطات الحجاجية** Paralogism. • موسى يستخدم تقنية **التفنيد الحجاجي** أو **الحجاج الإبطالي المضاد**. • فرعون يرد بالعنف الحجاجي لأجل إغلاق المجال التداولي للمحاورة برمتها. • لجوء موسى عليه السلام لتقنية **التساند الحجاجي المتدرج**، من خلال طلبه عرض الحجج عرضا عمليا عيانا أمام الملأ والناس. **(دائرة التناظر)** • موافقة فرعون على التحدي: **التوافق الجزئي** بين المتحاورَين. **(دائرة التشاور الجزئي)** • ازدياد العنف والمكابرة الفرعونية: **تحول المكابرة إلى تنازع تام**.

		• لجوء فرعون **لحجة السلطة** بالاستعانة بحاشيته، وانقلابها ضده بالإيمان (حصول **الإقناع** لدى العلماء السحرة). • فوز النبي الكريم موسى بالمناظرة، والهزيمة الحجاجية لفرعون: برهانيا من خلال الحجاج العقلي، وتجريبيا عمليا من خلال الآيات المعجزات.

٥–٤ التسلسل الهرمي الوظيفي للوحدات المعرفية البنائية لمحاورة موسى وفرعون:

من خلال الخطاطة السابقة نلاحظ نوعا من التسلسل الهرمي .كما عند مويشلير وإيدي رولي وغيرهما . للبنية المكوِّنة للمحاورة أو للمناظرة؛ فوحداتها ذات تفاعل دينامي متعدد الأصوات Polyphonic، تتميز ببنية تفاعلية تبادلية بين عدة متكلمين داخل المحاورة. وقد قام بوشعيب راغين بعرض مميز لهذه الهرمية، نورده مع تعديلات وإضافات بسيطة، خلاصته:

٥–٤–١ ينقسم المشهد الحواري السابق – من حيث بناؤه العام – إلى ثلاثة أجزاء، أو متتاليات Sequences:

١– متتالية الافتتاح (sequence of opening): تمتد من الآية ١٠ إلى الآية ١٥.

٢– وسط (جسم corps) الحوار: ويمتد من الآية ١٦ إلى الآية ٤٦.

٣– متتالية الختم أو الإغلاق (sequence of closure): وتنطلق من الآية ٤٧ إلى الآية ٥١.

ويتضمن المشهد الحواري عددا من التبادلات أو المبادلات exchanges؛ بحيث يتكون كل تبادل (مبادلة)، على الأقل، من تدخلين (أو مداخلتين) (interventions). ويتكون كل تدخل من فعل لغوي رئيسي، أو فعل لغوي ثانوي subordinate. ويمكن للفعل الثانوي أن يرد داخل بنية التدخل قبل الأفعال الرئيسية أو بعدها أو فيما بينها. **والفعل اللغوي** هو الوحدة الحوارية الذاتية الصغرى أو الدنيا. **والتبادل هو أصغر وحدة حوارية**؛ فعدة تدخلات تمثل تبادلا واحدا؛ حيث يكون الطابع الحواري للتبادل عائدا إلى كونه حاصلا عن أو نتاج تفاعل بين متخاطبين اثنين على الأقل. **والتدخل** هو الوحدة الحوارية الذاتية الكبرى داخل بنية التبادل، وهذه الوحدة تتميز بالوظيفتين الافتتاحية (initiative) والتعقيبية (reactive). *ويمكن أن يُعد التدخل بمثابة إسهام المتكلم داخل التبادل.*

٥–٤–٢ وقد وضع مويشلير بعض الشروط المتعلقة بجودة تكوين التبادلات، هي:

أ- **الشـرط الموضـوعاتي** (Condition thématique CT): حيث ينبغي للمكون التعقيبي أن يدور حول الموضوع نفسه الذي يتمحور حوله المكون الافتتاحي.

ب- **شـرط المحتوى القضـوي** (Condition de contenu propositionnel CCP): إذ ينبغي أن يكون المكون التعقيبي في علاقة دلالية (تعارض، أو تضـمن، أو تصـرف "اقتباس") مع المكون الافتتاحي.

جـ- **شـرط الوجهة الحجاجية** (Condition d'orientation argumentative): حيث يجب على المكون التعقيبي أن يكون له الوجهة الحجاجية نفسها التي للمكون الافتتاحي.

ويتبين لنا أن المشـهد الحواري الذي أوضـحنا بعض جوانبه الحجاجية يسـتوفي هذه الشـروط الثلاثة مجتمعة(١).

٥-٤-٣ ويتم بمقتضـى مبدأ **التكوين الهرمي الوظيفي** تقسـيم الوظائف المسـندة إلى المكونات أو الوحدات الحوارية التخاطبية إلى نوعين:

١- الوظائف التكلمية (fonctions illocutoires).

٢- الوظائف التفاعلية (fonctions interactives).

ويقوم هذا المبدأ بتفسـير العلاقات القائمة بين الوحدات الحوارية الكبرى (المركبة) كالتبادل والتدخل. فالتبادل يتكون من وحدات أو مكونات مرتبطة بواسطة الوظائف التكلمية. ويتكون التدخل من مكونات ترتبط من وظائف تفاعلية. **والوظائف التكلمية ثلاثة أنواع**: افتتاحية، وتعقيبية، وتعقيبية – افتتاحية؛ فالوظيفة الافتتاحية تستدعي ردا، كما هو الشأن في قول فرعون: "وما رب العالمين"، الذي جاء ردا على قول موسـى: "فوهب لي ربي حكما وجعلني من المرسـلين". كما أن قول فرعون يؤدي **وظيفة استخبارية**؛ أي طلب معلومة جديدة تتعلق بمعرفة رب العالمين؛ **فالوظيفة الافتتاحية** تلزم المحاوَر بالرد أو الجواب عن سـؤال أو التأكيد، أما **الوظيفة التعقيبية** فهي تتعلق برد فعل اتجاه تدخل ما ذي وظيفة افتتاحية أو جواب عن سؤال ما (كما المثال السـابق). وإذا رجعنا للخطاطة(١) فسـنفهم أهمية التفاعل بين المعلومات القديمة والجديدة لتحفيز مثل هذا النمط من التحاور الجدلي، خصـوصـا إذا كان

(١) يمكن مراجعة أمثلة لهذه التبادلات عند راغين: خصائص البنية الحوارية، نفسه. والشروط نقلا عن مويشلير:
Moeschler, Jacques: Ibid, Pp 78-81.

المجادل منكرا بالضرورة لمجمل الخطاب أو المناظرة، لأن مثل هذا التفاعل هو ما أثار في ذهن فرعون هذا السؤال، وكأنه يقول: لا ضير من السؤال لاكتساب معلومة ما ربما تفيد في الحجاج الإبطالي القادم أثناء المناظرة. كما يمكن للوظيفة التكلمية أن تكون تعقيبية–افتتاحية، وذلك عندما تسند إلى تدخل يتلو تدخلا افتتاحيا دونما ختم للتبادل؛ ومثال ذلك في المتن (قول موسى: من الآية ٢٠: "فعلتها إذا ...." إلى الآية ٢٢: "أن عبدت بني إسرائيل".

كما يظهر أن التبادلات التي تمت بين موسى وفرعون سارت وفق بناء ثلاثي:

- تدخل ١: افتتاحي.
- تدخل ٢: تعقيب.
- تدخل ٣: تقويم (evaluation).

٥–٤–٤ إن هذا البناء الثلاثي يمثل الشرط الضروري لتحقيق ما سماه رولي "**الاستيفاء التفاعلي**" complétude interactionnelle للتبادل؛ وهو ضرورة قبول المحاوَر للتدخل الافتتاحي للمحاوِر، الذي عليه، بدوره، قبول التدخل التعقيبي للمحاوَر؛ حتى يتسنى لهما ختم التبادل وإنهاؤه. أما الوظائف التفاعلية، فهي وظائف تسند إلى عناصر التدخل أو مكوناته؛ فالوظيفة التفاعلية تربط مكونا رئيسيا (من صف/مستوى فعل لغوي أو تدخل) بمكون ثانوي (من صف/مستوى فعل لغوي أو تدخل)؛ فالمكون الرئيسي هو الذي يمنح الوظيفة التكلمية للتدخل(١). ونلاحظ من خلال المشهد الحواري الذي حللناه وجود وظائف تفاعلية من النمط الحجاجي، تخصص الأفعال اللغوية

(١) لا يسمح المقام بعرض مسألة **الفضاء المزيج** في **نظرية الدمج المفاهيمي أو التصوري**، المعروف اختصارا **بنظرية المزج**، التي أسسها مارك تورنر، وهي النظرية التي من خلالها نفهم معاني الأفضية المتداخلة بأفعالها اللغوية المتباينة، الناشئة من مجالات دلالية شديدة التغاير، لكنها داخل دوائر المزج تُشكل معانيَ لا يمكن الوصول إليها إلا من خلال هذا النوع من *الدمج المزجي*. وربما يرتبط هذا الأمر بما نحاول تقديمه هنا عن فكرة **الاستيفاء التفاعلي** عند رولي، لكننا نقترح امتداده ليشمل هذا النوع من الفضاء المزجي العام الحاكم لمجمل التصورات. فأنا أرى مثلا أن موسى عليه السلام إذا بدأ المناظرة بإلقاء العصا وبيان المعجزات مباشرة، لم يكن ليؤمن به السحرة والعلماء من حاشية فرعون، لكنه بتدرجه الحجاجي السلمي، أسس أرضية ذهنية مهمة، مهدت. مفاهيميا. لتقبُّل الملأ لما قدم من تحقق عيني بعد ذلك. ولذا، فإن الاستدلال بالبراهين، والتداخل المزجي الحجاجي، هو عامل مهم جدا من عوامل الإقناع العقلي للمخاطَبين. وللباحث دراسات أخرى حول هذه القضية.

الثانوية باعتبارها حججا أو حججا مضادة بالنسبة للفعل اللغوي الرئيسي، وبالمقارنة مع تسلسلة السلم الحجاجي ذي البنية التقابلية، التي عرضنا نموذجا رياضيا سابقا لها، يمكننا أن نفهم هذه الطبيعة البنائية.

وهذه الوظائف التفاعلية المسندة إلى الأفعال هي التي تمنح للحجاج حضورا في النموذج الهرمي الوظيفي على حد قول بوشـــعيب راغين. إن هذا النموذج يُعنَى بالتنظيم المعرفي المعياري العام للحوار ويسمح، بالتبعية، بفهم الآليات المتحكمة في انتظامه الخطابي اللساني واشتغاله التداولي. لكنه مع ذلك يبقى نموذجا بنيويا وصـفيا لا يسـمح بسـبر أغوار بعض الخصـائص الدينامية ذات الطبيعة التفاعلية الظاهرة والمضمرة العميقة في الحوار، وفي كل أشكال التحادث والتخاطب، من قبيل البنيات الاستعارية ذات المزج الدلالي غير المألوف ... إلخ، التي تحتاج إلى مناهج أخرى من التحليل الذهني المفاهيمي، نحاول تقديمها في أطروحات أخرى إن شاء الله.

- والخطاطة التالية تلخص، بصـورة تبسـيطية، هذه **البنية المعرفية الداخلية** لمحاورة موسـى وفرعون، حاولتُ فيها إدماج المفاهيم وربطها بتشكلاتها النسقية التي تقدم الحديث عنها.

خطاطة (٥) البنية المعرفية الداخلية للمحاورة الموسوية الفرعونية في القرآن الكريم

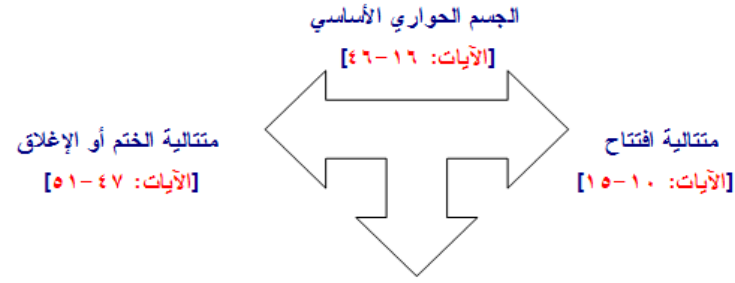

ينشأ تفاعل خطابي تسلسلي بين الأبنية الثلاثة المتوالية، يتكون من تبادلات حوارية رئيسية، تتأسس على تدخلات حجاجية إقناعية

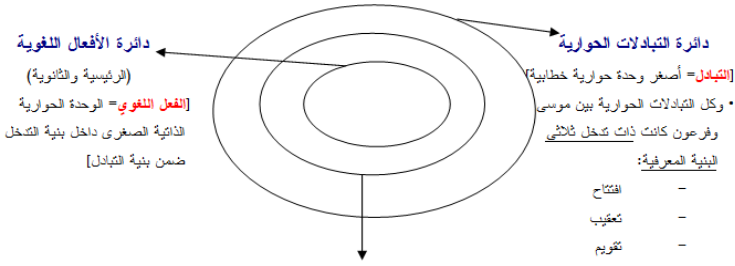

[التدخل= الوحدة الحوارية الذاتية الكبرى داخل بنية التبادل= إسهام المتكلم داخل التبادل]

• **التبادل >= التدخل > الأفعال اللغوية (الإنجاز الخطابي)** ← **تشكيل الامتداد الخطابي: المشاورات والمناظرات**[1]

تدخل رب العالمين – تدخل موسى – تدخل موسى وهارون – تدخل فرعون – إشراك فرعون للملأ

وكل تدخل لو وظيفتان معرفيتان

Initiative افتتاحية	Reactive تعقيبية
تستدعي الرد	تستدعي رد الفعل تجاه تدخل ما ذي وظيفة افتتاحية، أو جواب عن سؤال ... إلخ.

[1] لمسألة المناظرات والمشاورات، راجع الخطاطة (٢) سابقا.

خطاطة (٦) نموذج للتبادلات والتدخلات الحوارية في مناظرة موسى / فرعون

	تبادل (١)				تبادل (٢)		
	تدخل الله تعالى	تدخل موسى	تدخل موسى وهارون	تدخل فرعون	تدخل موسى	تدخل فرعون	تدخل موسى
فعل لغوي رئيسي	"ائت القوم الظالمين. قوم فرعون"	"إني أخاف أن يكذبون" – "ولهم علي ذنب" فأخاف أن يقتلون"	" إنا رسول رب العالمين"	"وأنت من الكافرين"	"فوهب لي ربي حكما وجعلني من المرسلين"	"وما رب العالمين"	"رب السماوات والأرض وما بينهما إن كنتم موقنين"
فعل لغوي ثانوي	"ألا يتقون"	"ويضيق صدري فأرسل إلى هارون"	"أن أرسل معنا بني إسرائيل"	"ألم نربك فينا وليدا"	– "فعلتها إذا ... لما خفتكم" – "وتلك نعمة تمنها علي أن عبدت بني إسرائيل"		

* ملحوظة:

نلاحظ أن الأفعال اللغوية الرئيسية والثانوية لا يُشترط بينها الترتيب التسلسلي الحواري؛ فكما قلنا آنفا: يمكن للفعل الثانوي أن يرد داخل بنية التدخل قبل الأفعال الرئيسية أو بعدها أو فيما بينها.

٦– الخاتمة:

كانت هذه مجموعة من القواعد والإلماحات التداولية المعرفية للنمط الحجاجي الأمثل في المحاورة الخطابية، ممثَّلا في القرآن الكريم؛ فمن خلال توضيح المفاهيم، وتحليل محاورة موسى وفرعون، وغيرها من النماذج القصيرة، نستطيع استكناه الجوانب الفعالة في الإقناع الخطابي.

وهذه بعض البنود المقترحة لتعميم الفائدة:

–ضرورة الالتفات إلى أهمية نموذج الكفايات التواصلية، الذي قدمته أوريكيوني، لأجل تعضيد البنية المعرفية لأسلوب الحجاج في الكتاب العزيز، وهو أمر يدفعنا من الناحية البيداجوجية إلى الاهتمام بالطبيعة الدينامية للتفاعل بين هذه الكفايات على مستوى تعليم الحجاجية في الخطاب عموما، وفي الخطاب الإقناعي خصوصا.

–يتميز الخطاب القرآني في عمومه بأنه **ذو فعالية تداولية جدلية**، وهدفه العام هو **الإقناع**، من خلال تقنيات الحجاج الجدلي المؤسس على البرهان العقلي، ونماذج التداول التواصلي المختلفة، وكلٌّ يمثل *تفاعلا معرفيا* قائما على المستوى الذهني (العرفان وقولبة الدماغ للمفاهيم)؛ حيث إن خطابية النص الحكيم تنبني على المظهرين: الحواري العام، والحجاجي الإقناعي.

–هناك مجموعة من **الآليات اللسانية الحجاجية**: التداولية والبلاغية التي يجب التنبه إليها؛ لضرورتها في تنمية دينامية التفاعل بين الكفايات التواصلية عموما، خصوصا تقنية **السلم**

الحجاجي وعلاقتها *بالاستدلال المنطقي* على مجمل القضايا والمفاهيم المطروحة على أذهان المخاطَبين، المتفاوتة في قدراتها الاستيعابية.

–الحجاج مظهر من مظاهر *انسجام* (**الحَبك أو الارتباط**) coherence الخطاب القرآني *واتساقه* (**السبك أو الربط**) cohesion: الانسجام والترابط الحجاجي الصريح (الروابط الحجاجية)، والروابط المنطقية المضمرة.

–مقام المناظرة أو الحجاج، بحسب طبيعة المحاورة الموسوية لفرعون، هو مقام ذو أركان أربعة:

- **ركن السؤال**، باعتباره استدعاءً وطلبا للمدعِي أو المعترِض (فرعون).
- **ركن الجواب**، باعتباره استدلالا ونظرا لإثبات المعترِض بدليله (موسى عليه السلام).
- **ركن الاعتراض**، باعتباره مقابلة يتوجه فيها السائل (فرعون) على نظر المستدل (بما يمنع من حصول المقصود منه، أو بما يوقفه عن إثبات دعواه[1]).
- **ركن وجوه التخلص من الاعتراض**، باعتبارها كيفيات تدفع وتسقط الموانع والمعارضات التي نصبها المعترض (فرعون) في وجه الناظر المستدل؛ أي المدعي (موسى عليه السلام).

–المحاورة هي استجابة لخصائص **المقام التناظري**؛ حيث يقوم فيه كل من المدعي والمعترض بالنظر في المدعَى؛ قصد إظهار الصواب فيه، على جهة التخاطب والتحاور والتنازع والتباحث والتعارض والتراجع والتطارح والتداخل والتداول والتجادل ... إلخ؛ بحيث يكون المعترض أو المدعو سائلا ومعترضا ومانعا، ويكون الداعي مدعيا ومجيبا ومعللا، على حد تعبير بوشعيب راغين.

المصادر والمراجع:

REFERENCES:

Ahmad M. (2001). al-al-waẓifiyyah bayna al-Kuliyyah wa al-namaṭiyyah, Rabat: Dar al-Amān.

Ahmad M. (2001). Qadāyā al-luggah al-arabiyyah fī al-lisāniyyāt al-waẓifiyyah, Rabat: Dar al-Amān.

al-Amidī, S. (1986). Al-Iḥkām fī Uṣūl al-Aḥkām, Tahqīq: S. Jamīlī, Beirūt: Dār al-Kitāb al-Arabī, Vol.2.

Al-Askarī, H. (1983). Al-Furūq fī Lugah. Dār al-Afāq a-Jadīdah.

[1] الطوفي: عَلَم الجذل في علم الجدل، ص٥٨. وراغين: خصائص البنية الحوارية.

Al-Askarī, H. (1986). Kitāb al-Sinā'atayn. tahqiq: Ali B. & M. Abul Faḏl. Beirut: al-Maktabah al-Aṣriyyah.

al-Azzāwī, A. (2006) al-Lughah wa al-Hijjāj, Casablanca: Manshūrāt al-Umdah fi al-Tab'.

Al-Bushaikhī, I. (1997). Qudrah al-Mutakallim al-Tawāsuliyyah wa ishkāl binā' al-anḫā', (PhD. Thesis). Meknes: Kuliyyah al-Adāb.

Al-Dalīl, L. (2016). Hijjajiyyah al-Jadal al-Qur'ānī, ḍimna al-Tahlīl al-ḫijāji lil-khiṭāb. Jordan: Kunūz al-Ma'arifah al-Urduniyyah.

Al-Jarkashī, B. (1994). Al-Bahr al-Muḫīt fi- Uṣuūl al-Fiqh, taḫqīq: Abdulqādir A. Kuwait: Wizārat al-Awqāf.

Al-Nāṣirī, Y. (2016). Taḍāfur al-Mukawwināt al-Lughawiyyah li-ḫijjaj al-mutalaqqī. Jordan: Kunūz al-Ma'arifah al-Urduniyyah.

al-Shawkāni. (n.d.). Fatḫ al-Qadīr al-Jāmi bayna al-Riwāyah wa Ilm al-Tafsīr, Cairo: Mat'ba'ah al-Bābī al-Halabī.

al-Shīrāzī, A. (1988). Sharh al-luma', Taḫqīq; Abdul Majīd T. Tunis: Dār al-Gharb al-Islāmī.

al-Suyūtī, J. (1999). al-Itqān fi Ulūm al-Qur'ān, Dār al-Kitāb al-Arabi.

al-Umarī, M. (2015). al-alāgah al-Arabiyyah: Uṣūluhā wa-mtidādātuhā. Ifrīqyā al-Sharq.

Aminah, B. A. (2003). Al-Iqnā, al-Manhaj al-Amthal li al-Tawāṣul wa al-ḫiwār, Majallah al-Turāth al-Arabī, Vol.89, March.

Andrew B. & Robert J. (2001). Stainton: Knowledge and Mind: A Philosophical Introduction, the MIT Press.

Ayyāshī, M. (2015). Al-Qur'ān min binā al-naṣṣ ilā binā al-ālam. Syria: Dār Ninawā.

Baylon. C. & Mignot, X. (1995). Semantique du Langage, Paris : Initiation Editions Nathan.

Breton, P. (2013). Al-Hijjāj fi Tawāṣul. trns. M. Mishbāl & A. Tuhāmi. Egypt: Al-Markaz al-Qawmī li-Tarjamah.

Bū-Shu'aib, R. (2009). "Khaṣāiṣ al-Binyah al-ḫiwāriyyah wa-Ususuhā al-Ma'arifiyyah al-Hijājiyyah fi al-Qur'ān al-Karīm". Al-Muntadā al-Alamī li al-Wasaṭiyyah. July.

Bū-Shu'aib, R. (2011). Al-Bunā al-Taṣawwuriyyah wa al-Lisāniyyāt al-Ma'arifiyyah fi al-Qur'ān al-Karīm, al-Urdun: Alam al-Ma'arifah.

Cathreen, O. (2007). Fi'l al-Qawl min al-Thātiyyah fi al-Lugha. trns: M. Nathīf. Ifrīqyā al-Sharq.

Dominique, M. Mushkilāt al Hijāj bi wāsitat al-Itūs, trns. H. Mudin, Urdun: Kunuz al-Ma'arifah al-Urduniyyah.

Hammādī, ṣ. (1998). Aḥamm Nathariyyāt al-Hijjāj fi al-Taqālid al-Gharbiyyah min Aristū ilā al-Yawm, Tunis: Jami'at Manūbah.

Hanbalī, N. (1987). Alam al-Jathal fi ilm al-Jadal. ann. F. H. & Franz S. Beirut: al-Ma'ahad al-Almānī li Dirāsāt al-Sharqiyyah.

Hasan, A. S. (n.d). Hāshiyat al-Aṭṭār alā Sharḫ al-Jalāl, Beirūt: Dār al-Kutub al-Ilmiyyah.

Hasan, B. (2012). Al-Muḫāwarah.. Muqārabah Tadāwuliyyah, al-Urdun: A'ālam al-Kutub al-Hadith.

Herman, B. Talwīn al-Khitāb, trns: Sabir al-Habasha. Tunis: al-Dār al-Mutawassitah li-nashr.

Hindāwī, A. (2013). I'jāz al-Kalimah al-Qur'āniyyah: Dirāsah Uslūbiyyah Balaghiyyah, al-Qahirah: Dār al-Alyā.

Ibn al-Athir, D. (2008). al-Mathal al-Sāir fi Adab al-Kātib wa al-ṣhāir, Tahqīq: Ahmad H. & B. Tabbana, Misr: Dār Nahḍat Misr.

Ibn al-Athir, D. (2008). al-Mathal al-Sāir fi Adab al-Kātib wa al-ṣhāir, Tahqīq: Ahmad H. & B. Tabbana, Misr: Dār Nahḍat Misr.

Ibn Qayyim, J. (1432H). Miftāh dār al-Sa'ādah wa Manshūr wilāyah al-Ilm wa al-irādah. Taḫqīq: Abd Rahmān Q. Jeddah: Majma' al-Fiqh al-Islāmī.

Khālid, S. (2015). Usus al-Ikhbār fi al-Kalām, bahth fi Rawāfid Intāj al-Fāidah, Urdun: Dār al-Ma'afifah al-Urduniyyah.

Lyons, J. (1980). Semantique Linguistique, Paris : Librairie Larousse.

Maj'mah Lugah. (2009). Al-Mu'jam al-Wasīt. Cairo. Maj'mah al-Lugha al-Arabiyyah.

Merriam. (2012). Merriam-Webster Dictionary, Merriam Webster Inc.

Moeschler, J. (1985). Argumentation et Conversation; Eléments pour une analyse pragmatique du discourse, Paris : Hatier, Paris.

Nahlah, M. (2011). Afāq Jadīdah fi al-bahth al-lughawī al-mu'āṣir. Cairo: Maktabah al-ādāb.

Nicholas, R. (2001). Cognitive Pragmatism; The Theory of Knowledge in Pragmatic Perspective, University of Pittsburgh Press.

Rashīd, R. (2014). Al-Mathāhir al-Lughawiyyah li al-Hijāj, Dār al-Baiḍā, al-Markaz al-thaqāfi al-Arabi.

Rayiṣ, N. (2014). al-Lisāniyyāt al-Mu'āṣirah fi ḍaw' nathariyyah al-tawāsul. Jordan: Alam al Kutub al-hadithah.

Raymond W. Gibbs. (2004). Intentions in the Experience of Meaning, Cambridge Univ Press, 2nd ed.

Sābir, H. (2009). Muhāwalāt fi Tahlīl al-Khitāb, Beirūt: al-Mu'asasat al-Jami'yyah li-Dirāsāt wa al-Nashr.

Sūlah, A. (2006). al-Hijjāj fi al-Qur'ān min khilāl Ahamm khasāiṣihi al-Uslūbiyyah. Beirūt: Dār al-Fārābī & Maktabah al-Ma'arifah. Vol.2.

Taema, A. (2015). "Dawr al-Ma'ānī fi Tawjīh al-Dilālah al-Tarkībiyyah: Dirāsah fi Ilm al-Dilālah al-Tafsīrī", Fes: Al-Rabitah al-Muhammadiyyah lil-Ulam'ā Conference, April.

Tāh, A. (1987). “Marātib al-hijjāj wa Qiyās al-Tamthīl”, Majallah Kuliyyah al-Adab wa al-Ulum al-Insaniyyah, Fes: Maroc, Vol.9.

Tāh, A. (1998). Al-Lisān Wa al-Mīzān Aw al-Takawthar al-Aqlī, Al-Markaz al-Thaqāfī al-Arabī.

Tāh, A. (2000). Fi Usūl al-Hiwār wa Tajdīd Ilm al-Kalām, Al-Markaz al-Thaqāfī al-Arabī.

Ukkāsah, M. (2014). Taḫlīl al-khiṭāb fi ḍaw' nathariyyah aḥdāth al-lugah. Dār al-Nashr lil-Jāmi'āt.

Zakariyyah, S. (2016). Al-Tahlīl al-ḥijāji li al-Khitāb al-Qur'āni.. Namāzij wa Mulāḫazāt, Urdun: Kunuz al-Ma'arifah al-Urduniyyah.